المبحث الثاني

مقطعات في أغراض أخرى

إلى جانب الأغراض الرئيسة التي تناولتها المقطعات الشعرية الأندلسية في عصر سيادة قرطبة، برزت أغراض أخرى يمكن أن نعدها ثانوية، قياسا إلى الأغراض الأساسية من حيث الكم والأهمية، إذ أن الشعراء لم يكثروا النظم فيها، فقد جاءت متناثرة في الدواوين الشعرية والمجموعات الأدبية، لذا رأينا أن ندرجها جميعا تحت هذه التسمية، ولعل أبرزها:

1. الشكوى:

تعد الشكوى وليدة الحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي وانعدام حياة العدل والمساواة والشعور بالحيف وعدم الوفاء، وهي بذلك صرخة العواطف المحرومة الخائبة، ومظهر للاضطراب النفسي، والتشاؤم الذاتي، ولا شك في أن الشكوى حاجة نفسية ملحة في كثير من الأوقات، فعن طريقها يخفف المرء من أثقال همومه، ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكي وصرخات التظلم.

بمعنى آخر أنها الوتر الحزين في قيثارة الشاعر، الذي يعزف عليه بألوان مختلفة باختلاف أسباب هذه الشكوى، فقد يشكو الدهر وتقلباته، والتفرد والعوز، ويندب الشباب متأثرا بمشيبه، ويتأسف على غدر الأخوان وغربة الأوطان، إلا أن هذه الألوان تجمعها نغمة واحدة، وهي الحزن الذي يرن في أذن الشاعر، ويعبر عنه بتلك الألفاظ الرقيقة والعاطفة الصادقة[1].

وعلى الرغم من أن هذا الغرض (الشكوى)، متأخر النشأة قياسا إلى الأغراض الأخرى، وكان يمر عليه الشاعر في بعض مقدمات قصائده المدحية، إلا أنه أصبح غرضا مستقلا فيما بعد، استطاع الشاعر أن ينظم فيه القصائد والمقطعات إبان العصر العباسي الأول، أي أنه من الأغراض المستحدثة[2].

أما في الأندلس، فلم يختلف الحال عما هو عليه في المشرق، فكان للشكوى حظها من التأخير، قياسا إلى الأغراض الأخرى، ولم تبرز بشكل يثير الانتباه إلا في عصر

(1) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين: 217-219.
(2) ينظر: العصر العباسي الأول: شوقي ضيف: 186.

الحجابة والفتنة، لكثرة الحروب الداخلية والخارجية، التي كان لها أثرها البارز على الشخصية الأندلسية بصورة عامة، لاسيما حالة التشرد والضياع، التي عانى منها الشعراء أسوة بغيرهم، مما أدى إلى تعالي الصيحات وارتفاع الشكوات نتيجة لسوء الأوضاع، وبوار السلع[1].

أ. شكوى الفقر:

وأول ما يطالعنا من مقطعاتهم في هذا الباب، شكواهم من الظروف الاقتصادية المتردية، إذ كانت حالة العوز والفقر والحرمان تعم شريحة كبيرة من المجتمع، ومن بينهم الشعراء والأدباء، إذ لم تتح لهم الحياة السبل التي تكفل لهم العيش الرغيد، فعانوا الفاقة والحرمان، وعكسوا واقعهم المرير اليائس.

فنرى حسانة بنت أبي الحسن[2]، ترفع شكواها ممزوجة برثاء زوجها، ومدح أميرها، طالبة منه أن يعينها بما تجود به يديه، بقولها[3]:

إنّي إليكَ أبا العاصي موجَّعةٌ ... أبا الحسينِ سَقَتهُ الواكفَ الدِّيَمُ

قدْ كنتُ أرتعُ في نعماهُ عاكفةً ... فاليومَ آوي إلى نعماكَ يا حَكَمُ

أنتَ الإمامُ الذي انقادَ الأنامُ لهُ ... وملّكتهُ مقاليدَ النُّهى الأمَمُ

فاستحسن الحكم شعرها، وأمر لها بإجراء راتب، وكتب إلى عامله على ألبيرة فجهزها بجهاز حسن[4].

وللغزال مقطعة يبث فيها شكواه من الفقر، منتقداً حالة كسب المال بطرق غير مشروعة، مؤكدا مرارة الفقر والعوز، بقوله منها[5]:

وجُلُّ ما يسقيكَهُ الدَّهرُ كَدَرْ

(1) ينظر: الحياة الثقافية: 71.

(2) حسانة بنت أبي الحسن التميمية، وهي من أولى الشواعر اللائي نبتن في روضة الأندلس، لا يعرف تاريخ وفاتها، إلا أنها عاصرت الحكم بن هشام (180-206هـ)، ثم اتصلت بابنه عبد الرحمن بن الحكم (206-238هـ)، وبعد ذلك انقطعت أخبارها، ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: 64-65.

(3) نفح الطيب: 428/2.

(4) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 107.

(5) ديوان الغزال: 67.

فلمْ أجدْ شيئاً من الفقرِ أمَرْ

ألا ترى أكثرَ من فيها يَفِرْ

مخافةَ الفقرِ إلى نارِ سَقَرْ؟

وكانت صورة الفقر تطارده دائما، وكأنه شبح يلازمه، وكان لشعره الاجتماعي مكانة واسعة، فنراه في هذه المقطعة من نقده الاجتماعي يصنع مقارنة بين الفقير المعدم وكبير السن ذي المال الكثير بقوله[1]:

وخَيَّرَهـــا أبوهـــا بـــينَ شـــيخٍ كثيـــرِ المـــالِ أو حَـــدَثٍ صـــغيرِ

فقالـــتْ خُطَّتـــا خســـفٍ ومـــا إنْ أرى مـــن حظـــوةٍ للمُسْـــتخيرِ

ولكـــنْ إنْ عزمـــتَ فكُـــلُّ شـــيءٍ أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن وجـــهِ الكبيـــرِ

ويبدو أن هذا اللون من الشكوى كان واضحا عند ابن صاعد الأندلسي، فبعد ذهاب مجده مع زوال ملك العامريين، لجأ إلى بعض أصحابه يستعطفهم، بعد أن يبين لهم الحال الذي هو عليه، فذهب يستجدي علي بن وداعة أحد الفرسان، ومن نبهاء الدولة في ذلك الزمان، بمقطعة شعرية يقول فيها[2]:

أبـــا حسَـــنٍ ربيعـــةَ مـــن ســـليمٍ ســـنانٌ زانَ عاليـــةَ الرِّمـــاحِ

وإنّـــي عائـــدٌ بـــكَ مـــن هِنـــاتٍ نحـــتنَ دعـــائمي تحـــت القـــداحِ

فَكِـــرَّ علـــى ابـــن عمِّـــكَ وانتشـــلْهُ فلـــيسَ حِمـــى ابـــنُ عمِّـــكَ بالمُبـــاحِ

فلما يأس من علي بن وداعة، ولم يسد حاجته ذهب يبث شكواه إلى الوزير أبي جعفر، ليشفع له عند الخليفة سليمان المستعين، فخاطبه قائلا[3]:

لـــمْ تبـــقَ غيـــرُ حشاشـــةٍ إن أُدرِكَـــتْ خلعـــتْ وإن أســـلمت فهـــو قتيـــلُ

(1) ديوان الغزال: 87.
(2) الذخيرة: ق4م1/ 9-10.
(3) م. ن: ق4م1/ 10-11.

بيـــــديكَ بعـــــد اللهِ فـــــكُّ إســـــارِهِ وعليـــكَ فـــي اســـتنقاذهِ التَّعويـــلُ

ومن الملاحظ على هذه المقطوعة أن الشكوى لم تأتِ ممتزجة بالأغراض الأخرى، وإنما جاءت مستقلة معبرة عن حالة الشاعر، ومعاناته من الفقر الذي جعله يطرق أبواب الوجهاء والوزراء لكي يسد رمقه ويعيل بناته.

ب. شكوى المرض:

إن هذا النوع من الشكوى غالبا ما يكون مرتبطا بشكوى الفقر، لأنه يكون سببا من أسبابه، إذ يشكل المرض بما يسببه من أوجاع وشقاء ووهن وقلق عبئا نفسيا آخر يضاف إلى هموم الشعراء[1].

كما نرى أبا المخشي[2]، الذي أدرك الدولة الأموية، وقال شعرا يمدح فيه الأمير سليمان أكبر أولاد عبد الرحمن الداخل بقوله[3]:

ولـــيسَ كمِثـــلِ مـــن إنْ ســـيمَ عرفـــاً يقلِّـــبُ مقْلَـــةً فيهـــا اعـــورارُ

مما أثار حفيظة هشام بن عبد الرحمن، ويبدو أن هشاما كان أحولا، فظن أنه يقصده، فسمل عينيه، فقال شعرا حزينا يصور الحالة التي هو عليها، فقد أصبح عالة على امرأته، بعد أن كان يعيلها بقوله[4]:

أمُّ بُنيّـــــاتي الضَّـــــعيف حُوَيْلُهَـــــا تعـــولُ امـــرءاً مثلـــي وكـــان يعولُهَـــا

وله من أخرى يشكو حاله كيف أصبح، وما آل إليه ببوادر وجدانية صادقة، وعاطفة حارة، وكيف جار الزمن عليه بحيث جعل امرأته تخضع للعدى، وكانت شكواه ممزوجة بشكوى حالته المرضية، وحاجته المادية بقوله[5]:

خَضَـــــعَتْ أُمُّ بنـــــاتي للعِـــــدى إذ قضَـــــى اللهُ قضـــــاءً فمَضَـــــى

ورَأَتْ أعمـــــىً ضـــــريراً إنَّمـــــا مَشـيُهُ فـي الأرضِ لمـسٌ فـي العصـا

(1) ينظر: الشكوى في القرن الرابع الهجري: جواد رشيد، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1988-1409هـ: 133.
(2) أبا المخشي: هو عاصم بن زيد العبادي، توفي في عهد الحكم الربضي، ينظر: المغرب لابن سعيد: 132/2.
(3) ينظر: تاريخ افتتاح الأندلس: ابن القوطية القرطبي، تحقيق عبد الله أنيس، دار النشر للجامعيين، بيروت، ط1، 1958: 60.
(4) المصدر نفسه: 60.
(5) المصدر نفسه: 59.

فاســـتكانتْ ثـــم قالـــتْ قولـــةً وهـــي حـــرّى بلَغَـــتْ منّـــي المـــدى

ففـــؤادي قَـــرِحٌ مـــن قولِهـــا مـــا مـــنَ الأدواءِ داء كـــالعمى

ج. شكوى الشيب والكبر:

لقد اتخذ الشعراء من الشيب موقفا متشائما نافرين منه، فراحوا يبكون شبابهم ويتفجعون عليه ويتمنون عودته.

وغالبا ما يقترن الشيب بالشيخوخة، فيكون الإنسان إزاءها محكوما بذهاب نضارة الشباب، والضعف والوهن والعجز وغيرها من أمراض الشيخوخة، وقديما قالت العرب: ((من بلغ السبعين اشتكى من غير علة))[1].

فكان الشيب يرهق كاهل الشاعر الأندلسي، ويثير في داخله الشجون ويولد لديه إحساسا بأفول الشباب، فنرى ابن عبد ربه يقف عند بداية ظهور الشيب مشبها إياه بالنجوم التي لا تغور، وأنه كان نذير الموت، يرسله مبشرا بقدومه، بقوله[2]:

نجـــومٌ فـــي المفـــارقِ لا تغـــورُ ولا يُجـــدي بهـــا فلـــكٌ يـــدورُ

كـــأنّ ســـوادَ لمّتِـــهِ ظـــلامٌ أغـــارَ مـــن المشـــيبِ علـــيّ نـــورُ

ألا إنّ القتيـــرَ وعيـــدُ صـــدقٍ لنـــا لـــو كـــانَ يزجُرُنـــا القتيـــرُ

نـــذيرُ المـــوتِ أرســـلهُ إلينـــا فكـــذّبنا لمـــا جـــاءَ النَّـــذيرُ

وعندما يتذكر أيام شبابه يتحسر ويتساءل بلوعة وألم عن سبب تبديل السواد بالبياض، تحسرا ممزوجا بالخوف من الموت والتوجس منه بقوله من مقطعة[3]:

شـــبابي كيـــفَ صـــرتَ إلـــى نفـــاذِ وبـــدَّلتَ البيـــاض مـــن الســـواد؟

فراقـــكَ عـــرفَ الأحـــزانِ قلبـــي وفَـــرَّقَ بـــينَ جفنـــي والرُّقـــادِ

(1) عيون الأخبار: ابن قتيبة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1925: 320/6.
(2) ديوان ابن عبد ربه: 76.
(3) ينظر: ديوان ابن عبد ربه: 55-56.

ولشدة وقع الشيب على الشاعر الأندلسي كره الصباح؛ لأنه شبيه للشيب، كما في قول سعيد بن عمرون القرشي (توفي قريب الأربعمائة هجرية)[1]:

تَخُطُّ يدُ الزّمانِ على عذاري ... سطوراً من حروفِ الشّيبِ بيضا

فأُبغِضُها وإنْ كانتْ كصُبحٍ ... ولمْ أرَ قبلها صُبحاً بغيضا

د. شكوى الزمان:

ليس الزمان للإنسان بصاحب، فالأيام دول يتعاقب فيها الفرح والترح، والإقبال والإدبار، والرضا والسخط، ولاشك في أن سوء حال المرء يتجلى في الناحية المعيشية، أو في ما يلقاه من أذى وإذلال على يد القوى الظالم المستبد، فكنوا عنه بالزمان أو الدّهر[2].

فأصبحت نظرة الشعراء نظرة متشائمة من الدهر، يسودها اليأس والحزن، وفقدان الأمل. فعندما سجن مروان بن عبد الرحمن الملقب بالطليق، كان عمره ستة عشر عاما، ومكث في السجن ستة عشر أخرى، وهو الأمير الأديب، فلا غرابة أن يقول شعرا يعبر فيه عن حالته النفسية، ومصدر همه وسبب شكواه بقوله لائما الدهر[3]:

ألا إنّ دهراً هادماً كلَّ ما نبني ... سيُبلى كما نَبلى ويَفنى كما نفني

وما الفوزُ بالدُّنيا هو الفوزُ إنّما ... يفوزُ الفتى بالرّبحِ فيها مع الفينِ

يجازي ببؤسٍ عن لذيذِ نعيمِها ... ويحنى الرّدى ممّا غدت الفه يمني

ولا شكَّ أن الحزنَ يجري لغايةٍ ... ولكنَّ نفسَ المرء سيّئةُ الظّنِ

وغالبا ما كانت الشكوى اليائسة المستسلمة هي الطابع السائد في أشعارهم، فنرى أبا المطرف بن عميرة يقول[4]:

منْ مُنصِفي من زَمَنٍ جائرٍ ... يُغلبُ فيهِ الحقُّ بالباطِلِ

(1) التشبيهات: 270، وينظر ترجمته في اليتيمة: 54/2، النفح: 129/5.
(2) ينظر: الأدب في ظل بني بويه: محمود غناوي الزهري، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1368هـ-1949: 243.
(3) الحلة السيراء: 321/1.
(4) المقتضب من كتاب تحفة القادم: ابن الأبار، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، مطبعة الأميرية، ط1، 1957: 150.

لـــو كـــانَ ســـحبانُ بـــه مفصـــحَاً لـــم يـــأمن الإســـكاتَ مـــن باقِـــلِ

ومن أكثر الشعراء الذين نظموا مقطعات في الشكوى، وذم الدهر هو الحاجب المصحفي، الذي قبض عليه المنصور بعد أن علم بسعيه للإطاحة به، فوضعه في السجن، بعد أن استصفى أمواله فيقول من مقطعة له يشكو زمانه وينعى حظه[1]:

صـــبرتُ علـــى الأيـــامِ لمّـــا تولّـــتِ وألزمـــتُ نفســـي صـــبرها فاســـتمرّتِ

فـــوا عجبـــاً للقلـــبِ كيـــفَ اعترافُـــهُ وللـــنَّفسِ بعـــد العـــزِّ كيـــفَ اســـتذلّتِ

ومـــا الـــنّفسُ إلا حيـــثُ يجعلُهـــا الفتـــى فـــإنْ طمعـــتْ تاقـــتْ وإلا تســـلّتِ

وكانـــتْ علـــى الأيـــامِ نفســـي عزيـــزةً فلمّـــا رأتْ صـــبري علـــى الـــذُلِّ ذلّـــتِ

شكوى الغربة والحنين:

دفعت الظروف السياسية في الأندلس لهذه الحقبة الزمنية بعض الشعراء إلى هجر أوطانهم في المشرق والالتحاق بركب هذه الجزيرة الجميلة، بعد أن فتحها المسلمون، وسمع القاصي والداني بخيراتها وجمالها، مما جعلها قبلة الشعراء، إلا أنهم ظلوا منشدين لأوطانهم، متعلقين بها، وإن قست عليهم الظروف، وتقلبت بهم الأيام، فأصبح الشاعر ممزقاً بين أن يبحث خارجاً عن وطنه عن طموحه وأحلامه، وأن يعيش في إقصاء روحي ونفسي بعيدا عن أفراد مجتمعه، فيكون أنينه عنيفا صارخا، وأن يعيش في وطنه ويرضى بالكفاف والقليل، وهذا محال عند الشعراء.

أما الحال الذي كان عليه شعراء الأندلس، فإنهم كانوا يعيشون ويعانون الغربة، ويموتون شوقا إلى بلادهم الأصلية، وأول ما يطالعنا في هذا الباب هو الأمير عبد الرحمن الداخل (ت 172هـ)، وكان أولى به أن ينسى ماضيه ومتاعبه وهو يتمتع بالجاه والسلطان والنعيم والانتصار الذي حققه، إلا أن هذا كله لم يصرفه عن الحنين إلى وطنه الأصلي، فكان شعوره كأنه نبت غرس بغير أرضه، فعندما وقعت عينه على راحلة متجهة صوب

(1) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي: محمد محمود يونس: 180.

وطنه، حملها مشاعره وسلامه، إذ لا يكتفي بإظهار اللوعة المستعرة في أحشائه، بل جاهر صراحة بأن جسده في الوطن الجديد، وروحه في الوطن القديم بقوله[1]:

أيُّهَا الرَّاكِبُ المُيمِمُ أرضي ... أقرِ مني بعضِ السلامِ لبعضِ

إنَّ جسمي كما علمتَ بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيهِ بأرضِ

قدَّرَ البيْنُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفوني غمضي

قد قضى اللهُ بالفراقِ علينا ... فعسى باجتماعنا سوفَ يقضي

والذي يمكن ملاحظته على هذا الحنين إلى المشرق، أنه تعبير عن صدق عاطفي، يعيشه الشاعر ويتفاعل معه، فليس له إلا أن يعيش بذكرياته التي يسلي بها نفسه الظامئة إلى وطنه الأصلي، ويمكن ملاحظة ذلك عند عبد الوهاب المالكي[2]، بقوله[3]:

فدىً لكِ يا بغدادُ أهلاً ومنزلاً ... ولمْ أرَ فيها مثلَ دجلةَ واديا

ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلاً ... وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانيا

وإن تصاعد هذا الشوق والإعجاب إلى بغداد، يبدو لي لأنها موطن لعدد كبير من الشعراء، بالإضافة إلى أنها مركز الخلافة العربية الإسلامية في هذه الحقبة، كما أن الشعراء الأندلسيين يعودون إلى ماضيهم كلما يستدعي حاضرهم وكلما جار الزمن عليهم، فيعودون ويرسمون لوحات ملونة بألوان زاهية لوطنهم الأصلي، تعكس ما يعتمل في نفوسهم، من غربة وشوق عارم مطبوع بطابع الشكوى، كما في قول قمر، وهي تتشوق إلى بغداد بقولها[4]:

آهاً على بغدادها وعراقِها ... وظِبائها والسحرَ في أحداقها

ومجالِها عندَ الفراتِ بأوجِهِ ... تبدو أهلتها على أطواقِها

(1) الصلة: لابن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، القسم الأول: 209.
(2) عبد الوهاب بن علي المالكي البغدادي، ولد سنة (362هـ) في بغداد، وتوفي في الأندلس سنة (422هـ)، ينظر: تاريخ بغداد: لابن الخطيب، دار الكتاب العربي، بيروت: 11/31-32.
(3) الذخيرة: ق4م2/ 527.
(4) نفح الطيب: 137/4.

متبختـــراتٍ فـــي النَّعـــيمِ كأنَّمـــا فـي الـدَّهر تشـرقُ مـن سـنا إشـراقها

إلا أن هذا التشوق لا يكون محصورا على بغداد فقط، بل إن كل شاعر يتشوق إلى موطنه الأصلي، بعد أم اقترب، فنرى عبد الله بن محمد الفرضي[1]، يكتب متشوقا إلى أفريقيا، بالرغم من قلة المدة التي قضاها بقرطبة بقوله[2]:

ومـــا لـــي حيـــاةٌ بعـــدكُمْ أســـتلذُّها ولـو كـانَ هـذا لـمْ أكُـنْ فـي الهـوَى حُـرّا

ولـــمْ يُســـلِني طـــول التَّـــائي هـــواكُمُ بلـى زادنـي شـوقاً وجـددَ لـي ذكـرى

يمـــثلكم لـــي طـــولُ شـــوقي إلـــيكمُ ويـــدنيكمُ حتَّـــى أنـــاجيكمُ سِـــرّا

وتعد أشد الشكوى إيلاما، تلك التي تحمل الطابع الثقافي، وخلو الساحة الأندلسية من أناس يقدرون العلم والعلماء، لا سيما في عصر الفتنة، حيث نرى الشاعر العالم الجليل ابن حزم يسيح في الأرض، وينتقل بين مدنها، ويلقى صنوفا من العذاب، وتحامل الناس عليه، وخاصة خصومه الذين ناصبوه العداء، من جراء الآراء التي جاهر بها واعتناقه للمذهب الظاهري[3].

إن هذه الظروف على ما يبدو هي التي دفعته إلى التشوق إلى بغداد، أرض الحضارة، المكان الذي لا يظلم فيه العالم، ولا يقيد فيه اللسان، ويكون العلم فيه سلعة رائجة، كما في قوله من مقطعة[4]:

ولـــي نحـــوَ أكنـــافِ العـــراقِ صـــبابةٌ ولا غُـروَ أنْ يسـتوحِشَ الكَلِـفُ الصَّـبُّ

فـــإنْ يُنـــزل الـــرَّحمن ركبـــي بيـــنهم فحينئـــذٍ يبـــدو التَّأسُّـــفُ والكـــرْبُ

هنالـــكَ تـــدري أن للعبـــدِ قصَّـــةً وأنَّ كســـادَ العلـــمِ آفتُـــهُ القُـــرْبُ

هذا وقد نشأ جيل أبدوا تفانيهم وحبهم، وكانوا على صلة ببلادهم الأندلس يتعلقون بها، ويحبونها ويضحون بالغالي والنفيس من أجلها، لاسيما في عصر الحجابة والفتنة، وإن

(1) عبد الله بن محمد الفرضي: أبو محمد القاضي المعروف، صاحب تاريخ علماء الأندلس، ولد سنة (351هـ)، وتوفي سنة (403هـ)، مقتولا في الفتنة، ينظر ترجمته في: مطمح الأنفس: 286.
(2) الصلة: القسم الأول: 249، وينظر: مطمح الأنفس: 286.
(3) ينظر: الذخيرة: ق1م1/ 171.
(4) مطمح الأنفس: 282.

هذه النزعة الوطنية كانت تلتهب عندما تعتريها هزات، تحرك كوامنها وتثير رواسبها التي استقرت في أعماق النفوس[1]، فكان الاغتراب هو العامل الأول في تحريك هذه الكوامن، لاسيما عندما يترك الشاعر وطنه مكرها، كما هو حال ابن هانئ الأندلسي، حين أثار البعد قريحته فأجاد وأبدع قصائدا في الحنين إلى قرطبة[2].

كما يمكن أن نلمس ذلك عند ابن الفرضي (ت 403هـ)، الذي ألقى اللوم على دهره معاتبا إياه متمنيا العودة إلى وطنه الأندلس، مسليا نفسه بذكريات الماضي، كما في قوله من مقطعة له[3]:

سأســـتعتبُ الـــدَّهرَ المفـــرقَ بيننـــا وهلْ نـافِعي إنْ صرتُ أستعتبُ الدَّهرا

والذي يمكن التوصل إليه بعد هذه الجولة، أن شعر الغربة كان لوناً من ألوان الشكوى، وأن شعر الشكوى في الغربة والحنين، كان منصبا على الشوق إلى بلاد المشرق، وإن كان تشوقهم إلى الأندلس حاضرا بين ثنايا مقطعاتهم، إلا أنه أقل بكثير من التيار الأول، كما أنه لم يرق إلى مستوى شعر الشكوى في العصور التي تلت عصر سيادة قرطبة، لما حل من نكبات وانتكاسات، لاسيما في عصر الطوائف والمرابطين.

2. الزهد

((هو الابتعاد عن الخطيئة والاستغناء عن الكماليات، وتجنب كل ما من شأنه أن يُبعد عن الخالق))[4]، وهو دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، والاكتفاء بما يقيم الأود ويستر الجسد[5]، وهو بهذه المعاني رفض للحياة الدنيا واعتزالها، بل يعني إعطاءها حقها والتعامل معها في حدود الاعتدال والتطلع لما وراءها، فهو إذا ((علم عملي، وفن لعبادة الله، ومنهج في الحياة))[6].

(1) ينظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: أسعد إسماعيل شلبي: 173.
(2) ينظر: ديوان ابن هانئ الأندلسي: 53-54.
(3) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس: ابن الفرضي، طبعة القاهرة، 1954: 6/1.
(4) دائرة المعارف الإسلامية: محمد ثابت الفندي وآخرون، طهران، د.ت: مادة (زهد).
(5) ينظر: الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق، م.ط دار النهضة، ط2: 52.
(6) ابن عربي، حياته وشعره: آسين بلاثيوس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، م.ط وكالة المطبوعات، كويت، دار العلم، بيروت، 1979: 111.

وأغلب الظن أن شعر الزهد في الأندلس يرجع إلى أيام الحكم الربضي، إذ ((أنشأ الفقهاء أشعارا في الزهد والحض على قيام الليل في صوامع المساجد، وأمروا أن يمزجوا مع ذلك شيئا من التعريض بحكم الربضي، فكانوا ينادونه ليلا من أعالي الصوامع، الصلاة.. الصلاة يا مخمور، المسرف المتمادي في طغيانه..))[1].

وهذا يعني أن شعر الزهد في الأندلس ظهر أواخر القرن الثاني، خلال حكم الحكم الربضي (180-206هـ)،، وكان ظهوره ردة فعل على تصرفات الأمراء الذين أغرقوا أنفسهم في بحور الملذات، كما أنه أول ما ظهر على أيدي الفقهاء.

وكان لسلطة الفقهاء الدور الكبير في دفع الناس إلى التعصب والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها، حتى أصبح قول الزهد أمرا مرغوبا فيه[2].

وإن ردة الفعل هذه على تلك الظروف السائدة بلغ حد التطرف، كما عند الأمير عبد الله بن الناصر[3]، عندما رأى إسراف أبيه في أمور الدنيا وإغراقه في حبها، متمثلا في بناء القصور واقتناء الجواري والقيان، إلا أنه ألقي القبض عليه، وفشلت محاولته التي دبرها في ملك أبيه محاولا التخلص منه[4].

ولكن هذا لا يعني أن الموروث الزهدي جاء جله معبرا عن نزعة صادقة في التقرب إلى الله، إذ هناك من نظم بدوافع تقليدية، أو شعور بالندم على ما أسرف في حياته، طالبا المغفرة من الله ﷻ مما قد يكون تعبيرا عن خلجة نفسية وقتية ولمحة بارقة سرعان ما تتلاشى عندما تزول دوافعها[5].

أما دوافع الفقر والحرمان، فلا يمكن النظر إليها على أنها سبب في نظم شعر الزهد، فهي من الدوافع التي اختفت من مخيلة الشاعر الأندلسي، وهو ينظم في هذا الباب، وذلك

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي: 20.
(2) ينظر: في الأدب الأندلسي: جودة الركابي: 118.
(3) الأمير عبد الله بن الناصر: كان فقيها متنسكا شافعيا، شاعرا إخباريا، حاول الانقلاب على أبيه ففشلت محاولته، فحبسه إلى أن قتله سنة 339هـ، ينظر: بغية الملتمس: 333.
(4) ينظر: المغرب في حلى المغرب: 1/182-183.
(5) ينظر: الأدب في عصر المرابطين والموحدين: 259-261.

لأن الأندلس بيئة مترفة لم تنقبض فيها المكافآت عن الشعراء، إذ الخلفاء الأمويون يبذلون لكل مجيد من الشعراء[1].

ومن الغريب أننا نجد الدكتور حكمت الأوسي يدرج الزهد ضمن أدب الفقر والحرمان، ويجعلها أساسا لنشوء هذا اللون في الأدب الأندلسي[2]، في حين يختفي هذا الدافع في الأدب الأندلسي، وإن تمثل في الموروث الزهدي المشرقي، حتى عده الدكتور محمد كامل الفقي من الأسباب التي جعلت الزهد غرضا رائجا عند شعراء المشرق يفوق نظيره في الأندلس[3].

ولقد نقض الدكتور مصطفى الشكعة هذا الرأي بقوله: ((إن الشعر الزهدي في الأندلس أضعاف مثيله في المشرق))، ويعزو ذلك إلى ردة الفعل الناتجة من جراء الرفاهية والرخاء واللذة المشرعة لأسباب المتعة التي أغرقت البيئة الأندلسية[4]، ويعود سبب هذا التباين إلى أن الفقي استمد رأيه هذا في الحكم من التراث الزهدي الذي بين أيدينا، بينما أخذ (الشكعة) بعين الاعتبار ما ضاع من الشعر الزهدي في الأندلس، إذ اعتمد إشارات تدلل على أن للزهد منزلة كبيرة في بلاد الأندلس، منها تصنيف ابن بشكوال كتابا بعنوان (زهاد الأندلس وأئمتها)، غير أن هذا الكتاب قد ضاع بين الآلاف العديدة من كتب التراث التي عدا عليها الزمن بمحنة أو بأخرى[5].

وفي كلتا الحالتين، لا يمكن أن ننكر دور الشعر المشرقي في تقوية النزعة الزهدية في الاتجاه الديني الأندلسي، لاسيما أثر أبي العتاهية، ولكن هذا لا يعني أنهم اقتبسوا هذا الموضوع أو استعاروه، لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية في كل مجتمع من المجتمعات[6]. وسنورد أمثلة لمن أدرك غرور الدنيا وشعر بعظم ذنوبه، واتخذ الزهد وسيلة وسيلة للتفريج عن همه يدفعه إليه كبر سنه ومداهمة الشيب له، وكان خاتمة لمسيرته الشعرية الحافلة بأغراض الشعر الأخرى.

(1) ينظر: في الأدب الأندلسي: محمد كامل الفقي: 13.
(2) ينظر: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين: 203.
(3) ينظر: في الأدب الأندلسي: دار الفكر العربي، ط1، 1975: 13.
(4) ينظر: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه: 57.
(5) المصدر نفسه: 57.
(6) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: 94.

ومن أولئك النفر يحيى بن حكم الغزال، الذي أنهكته الذنوب حتى ضجر من الحياة، وسئم من ملذاتها، فهو ((لم ينسك نسكا أعجميا، بل ظرف ظرفا أدبيا))[1]، على حد تعبير ابن دحية الكلبي، وكانت زهدياته ممزوجة بالحكمة، مشوبة بذكر الموت، معلنا ندمه على ما سلف، حتى أنه لم يودع يوما إلا ويظن أنه أخر عهده بالحياة، كما في قوله من مقطعة[2]:

وما أفارقُ يوماً من أفارقُهُ ... إلا حسبتُ فراقي آخرَ العهدِ

انظرْ إليَّ إذا أدرجتُ في كفَني ... وانظرْ إليَّ إذا أدرجتُ في اللّحدِ

واقعدْ قليلاً وعاينْ من يقيمُ معي ... ممّن يشيعُ نعشي من ذوي وُدّي

هيهاتَ كلّهمُ في شأنه لعبٌ ... يرمي التُّرابَ ويحثوهُ على خدّي

فكانت نظرته إلى الحياة نظرة متشائمة يائسة، ونظرته إلى الناس نظرة مزرية، وكان رأيه في الحياة أنها زائلة فلا بقاء للمرء فيها، فبعد أن بلغ من الكبر عتيا، أخذ يعد أيامه طالبا من الموت أن يطرق بابه لطول ما عمّر، فعبر عن هذه النظرة المتشائمة بقوله[3]:

ألستَ ترى أنَّ الزَّمانَ طَواني ... وبدَّلَ خَلقي كُلَّهُ وبراني

تَحَيَّفَني عُضْوَاً فَعُضواً فلمْ يدَعْ ... سِوى اسمي صَحيحاً وحدهُ ولساني

ولو كانتْ الأسماءُ يدخُلُها البلى ... لقدْ بلي اسمي لامتدادِ زماني

ومالي لا أبلى لتسعينَ حجَّةٍ ... وسبعٍ أتتْ من بعدها سنتانِ

وقد دفع زهد عدد من الشعراء في الحياة الدنيا إلى ذمها والتعبير عن السأم منها، فهي متقلبة لا تستقر على حال، وهي مذمومة حتى بآمالها وملذاتها، لما قد يعتريها من الفجائع والندم، وقد تجلى هذا الموقف من الدنيا عند ابن عبد ربه، متمثلا في التعبير عنها بقوله[4]:

---

(1) المطرب: لابن يحيى: 184.
(2) ديوان يحيى بن الحكم الغزال: 64.
(3) المصدر نفسه: 112.
(4) ديوان ابن عبد ربه: 21-22.

ألا إنَّمـــا الـــدُّنيا نظـــارةُ أيكـــةٍ إذا اخضـــرَّ منهـــا جانـــبٌ جـــفَّ جانـــبُ

هـــي الـــدَّارُ مـــا الآمـــال إلا فجـــائعٌ عليهـــا ولا اللّـــذاتُ إلا مصـــائبُ

وله من مقطعة أخرى أبيات مطبوعة بطابع الحكمة، يذم بها الدنيا مستعينا بأسلوب القصر للتقليل من قيمتها وقيمة الملذات التي تتخللها، فلا فرق عنده بين نائل اللذة وبين الحالم، ولا بين الموت وبين الشاهد الغائب الذي حتما سيقضي على كل ملذات الحياة، بقوله[1]:

ألا إنَّمـــا الـــدُّنيا كـــأحلامِ نـــائمٍ ومـــا خيـــرُ عـــيشٍ لا يكـــونُ بـــدائمِ

تأمَّـــل إذا مـــا نلـــتَ بـــالأمسِ لـــذَّةً فأفنيتَهَـــا هـــل أنـــتَ إلا كحـــالمِ

ومـــا المـــوتُ إلا شـــاهدٌ مثـــلُ غائـــبٍ ومـــا النَّـــاسُ إلا جاهـــلٌ مثـــلُ عـــالمِ

والحقيقة أن ذم الدنيا أساسه زوالها، فإن لذاتها منغصة بالموت، فنرى علي بن أبي الحسين (ت 430هـ)، يرسم صورة الإنسان في هذه الحياة بدقة متناهية، بقوله[2]:

ومـــا النَّـــاس إلا ســـحابٌ أظـــلَّ فلمَّـــا انهمـــى مـــاؤُهُ أقلعـــا

ومـــا أنفـــسُ النـــاس إلا عـــوارٍ وقصـــرُ العـــواري بـــأن تُرجَعَـــا

أما محمد بن مسرة، مؤسس مذهب المسرية في الأندلس، الذي خلط فيه بين مبادئ الاعتزال والتصوف[3]، فكانت نظرته إلى الدنيا نظرة الزاهد المتمسك بالحق، وكانت الدنيا مطيته إلى الآخرة، ووسيلة تؤدي إلى الغاية وهي الموت، بقوله[4]:

إنَّمـــا المـــوتُ غايـــةٌ نحـــنُ نســـعى خَبَبـــاً نحوهـــا علـــى الأقـــدامِ

إنَّمـــا الليـــلُ والنَّهـــار مطايـــا لبنـــي الأرضِ نحـــو دارِ حمـــامِ

(1) المصدر نفسه: 152.
(2) التشبيهات: 272، كما ينظر ترجمته في الذيل والتكملة: 317/5.
(3) ينظر: الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: 52-58.
(4) التشبيهات: 271.

ومن المعاني الزهدية التي استوقفت الزهاد في عصر الخلافة، هي التوبة، وغالبا ما تكون التوبة ملازمة لكبر السن، وتكون في الشطر الثاني من حياة الإنسان، كما نلاحظ ذلك عند ابن عبد ربه في شعره الزهدي، الذي سماه (الممحصات)، إذ نقض كل قطعة قالها في الصبا بمقطعة زهدية تتخللها التوبة والندم، كما في قوله[1]:

يا عاجزاً ليس يعفو حينَ يقتَدِرُ ... ولا يقضَّى لهُ من عيشِهِ وَطَرُ

عاينْ بقَلبِكَ إنَّ العينَ غافلةٌ ... عن الحقيقةِ واعلمْ أنَّها سَقَرُ

سوداءُ تزفرُ من غيظٍ إذا سُعِرَتْ ... للظَّالمينَ فلا تُبقي ولا تَذَرُ

لو لمْ يكنْ لكَ غيرَ الموتِ موعظةٌ ... لكانَ فيها عن اللذّاتِ مُزدَجَرُ

أنتَ المقولُ لهُ ما قلتَ مبتدئاً ... هلا ابتكرتَ لبينٍ أنتَ مُبتَكِرُ

وهذه المقطوعة محّص فيها المقطوعة الغزلية التي مطلعها[2]:

هلا ابتكرتَ لبينٍ أنتَ مُبتَكِرُ ... هيهاتَ يأبى عليكَ اللهُ والقَدَرُ

وله أيضا في التوبة واقفاً موقف الذليل النادم بعد ارتكابه المعاصي الجسام بقوله[3]:

يا ويلنا من موقفٍ ما بِهِ ... أخوفُ من أنْ يعدِلَ الحاكمُ

أُبارزُ اللهَ بعصيانِهِ ... وليس لي من دونِهِ راحِمُ

يا ربُّ غُفرانَكَ عن مذنِبٍ ... أسرفَ إلا أنَّهُ نادِمُ

وحين نتحدث عن الزهد في هذه الحقبة، لابد أن نقف على شعر الزهاد العلماء، وخاصة الفقهاء منهم، لاسيما في القرن الرابع الهجري[4]، ومن جملة العلماء الزاهدين في هذا العصر، عبد الله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر، الذي كان فقيها شافعيا متنسكا

(1) ديوان ابن عبد ربه: 71.
(2) المصدر نفسه: 70.
(3) المصدر نفسه: 160.
(4) ينظر: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين: د. منجد مصطفى بهجت، م.ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1407هـ: 55-58.

ورعا[1]، والعالم الورع منذر بن سعيد البلوطي[2]، والعالم الزاهد الجليل محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت 399هـ)، الذي كان فقيها مقدما وزاهدا متبتلا، وكان من الورعين الخاشعين، إذا سمع وعظا ابتدرت عيناه بالدموع، حتى اتخذ الزهد في حياته حقيقة واقعة قبل أن يكون تأمل المضطر الناتج عن ضعف جسدي أوصلته إليه الشيخوخة، كحال من ذكرناهم من شعراء الحقبة السابقة، أو كحال صديقه العالم سليمان بن بطال الذي انقاد لداعي التقوى أيام شيخوخته، حتى ألف كتبا في الزهد أسماها: ((المواعظ، والدليل إلى طاعة الجليل، وأدب الهموم))[3].

لقد امتدت نزعتهم الزهدية إلى فنهم الشعري فقالوا شعرا في الزهد حتى انقسموا في أدبهم إلى فريقين، فريق تخصص في هذا النوع وأكثر القول فيه، وأهم من مثله الشاعر قاسم بن نصير[4]، وابن أبي زمنين، ومما تجدر الإشارة إليه أن شعراء هذا الفريق كانوا كثيرين[5].

وفريق قليل العدد تناول أصحابه الزهد، فضلا عن موضوعات الشعر الأخرى، مثل سليمان بن بطال، ومنذر بن سعيد البلوطي، وأبو بكر الزيدي.

ونتيجة لشيوع هذا الكم من الشعراء الذين مثلوا هذا اللون شاع اتجاه تعليمي منبعه حرص العلماء على التعليم في المساجد العامة والأماكن الخاصة، وممارسة الوعظ والنصح والإرشاد، أثناء التدريس وخاصة أنهم أصحاب علم ودعاة حقائق[6].

إذ انبرى أولئك الشعراء لنقد مجتمعهم، ومحاولة توجيه النفوس توجيها دينيا، والابتعاد عن رذائل الأعمال وملذات الهوى[7]. فنرى الشاعر ابن أبي زمنين يقول في اضطراب وقته ناصحا أقرانه بالتوجه إلى الله، وترك زمان التصابي[8]:

---

(1) ينظر: الحلة السيراء: 206/1.
(2) ينظر: مطمح الأنفس: 238.
(3) ينظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون المالكي (ت 399هـ)، تحقيق د. محمد أبو النور، م.ط. دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 1972: 307/1، إلا أن هذه المؤلفات لم تصل إلينا.
(4) ينظر تاريخ علماء الأندلس: ابن الفرضي، مط الدار العصرية للتأليف، 1966: 55/6.
(5) يراجع: ترتيب المدارك: 415/4، وينظر: التكملة لكتاب الصلة: 782/2.
(6) ينظر: الصلة: 49/1.
(7) ينظر: أدب الزهد الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: حميد البلداوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب/ جامعة بغداد، 1405هـ-1985: 17.
(8) ترتيب المدارك: 673/4.

خليلـــــيَّ إنَّ الـــــذي تعلمانِـــــهِ زمـــانُ التَّصـــابي وانطـــلاقُ عنانِـــهِ
شديدُ الأسى حرُّ الجوى مُحرِقُ الحشى فهـــل مـــن مجيـــرٍ مخبـــرٍ بأمانِـــهِ
وأيُّ مجيـــرٍ غيـــرَ مـــن قـــد عصـــيتُهُ فيـــا أســـفي إنْ لـــمْ يعُـــدْ بجنانِـــهِ

فكان لزاما عليه وهو ينصح الناس بالتوجه الوجهة الدينية، أن يذكرهم بقدوم الموت في أي لحظة، محذرا من الاطمئنان إلى الدنيا بقوله[1]:

المـوتُ فـي كـلِّ حـينٍ ينشـرُ الكفنـا ونحـنُ فـي غفلـةٍ عمَّـا يُـرادُ بنـا
لا تَطمَـــئِنَّ إلـــى الـــدُّنيا وزُخرُفِهـــا وإنْ تَوَسَّـــمْتَ مـــن أثوابِهـــا الحُسْـــنا
أيـــنَ الأحبَّـــةُ والجيـــرانُ؟ مـــا فَعَلُـــوا أيـــن الـــذينَ همـــوُا كـــانوا لنـــا سَـــكَنَا
ســـقاهُم الـــدَّهرُ كأســـاً غيـــرَ صـــافيةٍ فصـــيَّرَتهمْ لأطبـــاقِ الثَّـــرى رهنـــا

حتى ليجعل الزبيدي القبر خير واعظ لمن يسمع ويبصر بقوله[2]:

لـــو لـــمْ تكـــنْ نـــارٌ ولا جنَّـــةٌ للمـــــــرءِ إلا أنَّـــــــهُ القبـــــــرُ
لكـــــانَ فيـــــه واعـــــظٌ زاجـــــرٌ نـــــاهٍ لمـــــنْ يســـــمَعُ أو يبصِـــــرُ

ويلتفت العالم الشاعر محمد بن وهب (ت 366هـ)، إلى الرجل الغني كثير المال، ويرشده إلى وجوب إنفاقه في سبيل الخير، لارتباط ذلك بحساب الآخرة، ويدعوه إلى الرضا والقناعة بقوله[3]:

جمعـتَ مـالاً ففكِّـرْ هـل جمعـتَ لـهُ يـا جـامعَ المـالِ أبوابـاً تُفرِّقُـهُ
المـــالُ عنـــدكَ مخـــزونٌ لوارِثِـــهِ مـــا المـــالُ مالـــكَ إلا يـــومَ تُنفِقُـــهُ
إنَّ القناعـــةَ مـــن يحلُـــلْ بســـاحَتِها لـــم يلـــقَ فـــي ظلِّهـــا همَّـــاً يُؤرِّقُـــهُ

(1) الصلة: 483/2، ووردت بشيء من الاختلاف في الجذوة: 57.
(2) يتيمة الدهر: 70/2، ونفح الطيب: 342/4.
(3) يتيمة الدهر: 60/2.

ولا يقتصر الزهد على باب النصح والإرشاد وتعليم الآخرين والإفادة من تجاربهم ونقد المجتمع، بل قد يعبر الشاعر عن هموم ذهنية، وحالات نفسية، نابعة من النظر في النفس والتفكير في الوجود، ومصير الإنسان، وهذه الفلسفة الروحية تنبعث من الذات، وكثيرا ما يصدر هذا الشعر عن الشعراء مع كبر السن، وتراجع العمر، حيث يحس الشاعر بدنو أجله، فينيب إلى الله سبحانه وتعالى ويتوب إليه بعد ما اجترح من ذنوب وسيئات، ويقترن هذا المفهوم بصفات المتقين[1]، كما نلحظ ذلك عند الشاعر ابن الفرضي (ت 403هـ)، وهو يصف وقفة الحساب، ووحشة القبر، راثيا نفسه، ناعيا حظه بأسلوب تغلب عليه الموعظة الصادقة، بقوله[2]:

أسيرُ الخَطَايا عندَ بابِكَ واقفُ ... على وَجَلٍ ممَّا بِهِ أنتَ عارِفُ

يخافُ ذنوباً لم يغبْ عنْكَ غيبُها ... ويرجوكَ فيها فهوَ راجٍ وخائفُ

ومنْ ذَا الّذي يرجُو سواكَ ويتّقي ... وما لكَ في فصلِ القضاءِ مُخالفُ

فيا سيّدي لا تُخزِني في صحيفَتي ... إذا انتشَرَتْ يومَ الحسابِ الصَّحائفُ

وكنْ مؤنسي في ظُلمةِ القَبْرِ عندما ... يصدُّ ذوو وُدّي ويجفو الموالفُ

لئِنْ ضاقَ عنّي عفْوكَ الواسِعُ الّذي ... أُرَجّي لإسرافي فإتّي لَتالِفُ

هذا ومن الملاحظ على الشعر الزهدي، استعانته بالقرآن الكريم في رسم صوره، كما نلاحظ ذلك عند محمد بن الحسين الزبيدي[3] (ت 379هـ)، بقوله[4]:

أشْعِرَنْ قلبَكَ ياسا ... ليسَ هذا النَّاسُ ناسا

---

(1) ينظر: البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية في الشعر العراقي الحديث: د. ماهر دلي إبراهيم الحديثي، رسالة دكتوراه: 59-60.

(2) وفيات الأعيان: 105/3، كما ينظر: تذكرة الحفاظ: شمس الدين الذهبي، مط دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت: 78/3.

(3) محمد بن الحسين الزبيدي، عمل مؤدبا للخليفة هشام المؤيد، فكان بارعا في الأدب واللغة، توفي سنة (379هـ)، ينظر ترجمته في: مرآة الجنان: 409/2، معجم المؤلفين: 198/9.

(4) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحط الذهن والهاجس: ابن عبد البر الفرضي، تحقيق محمد بن مرسي الخولي، مط الدار المصرية، د.ت: 673/1.

قـــدْ مضـــى الإبريـــزُ مـــنهمْ وبقـــوا بعـــدُ نُحاســـا

ســـامريّينَ يقولـــو نَ جميعـــاً لا مَساســـا

فقد استعان بما جاء في القرآن الكريم من قصص الأنبياء، حيث السامري هو المُعاقَبْ من قبل النبي موسى عليه السلام بالعزلة، قال الله ﷻ ﴿**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ**﴾[1].

ومن الملاحظ على شعر الزهد أيضا في عصر سيادة قرطبة، أنه كان في الغالب على شكل مقطعات شعرية جاءت نتيجة للدوافع التي شجعت على نشوء هذا اللون، لاسيما دافع التعليم المتمثل بالنصح والإرشاد الذي جاء ضمن حلقات العلم في المساجد.

وكذلك الحال بالنسبة للزهديات، التي نظمت بدوافع ذاتية، بعد التأمل في النفس، والتفكير في الحياة واقتراب الخاتمة، ونهاية المطاف، فكان نظمهم الزهدي يعبر عن ومضة سرعان ما تختفي باختفاء هذا الدافع، مما حتّم عليها أن تكون معبرة عن خلجات النفوس وخفايا الضمير المكنون.

3. الهجاء

يحتل الهجاء مكانة واسعة في الشعر العربي وهو من الأغراض التي تمثلت في الشعر الأندلسي في هذه الحقبة، إلا أنه بقي أقل شيوعا منه عند المشارقة، لاسيما في العصر الأموي، كما في نقائض جرير والفرزدق، وبروز الهجاء الديني السياسي الذي بقيت آثاره في التراث الأدبي.

والهجاء في الشعر الأندلسي لم يلق سوقا رائجة، لاسيما الهجاء السياسي لقلة الأحزاب السياسية، وإن ظهرت بعض الأهاجي في عهد الأمراء بين المضرية واليمانية، ولكن لم نظفر منه بما هو جدير بالاهتمام[2]؛ لإحجام بعض المؤلفين عنه؛ لما فيه من فحش وإقذاع.

(1) سورة طه: من الآية97.
(2) ينظر: في الأدب الأندلسي: جودة الركابي: 114.

فابن بسام يؤكد ذلك بقوله: ((قد صنت كتابي عن شين الهجاء وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء))[1]، والحميدي حينما يترجم لليحصبي وهو شاعر كثير الهجاء في الدولة العامرية يقول فيه: ((ولليحصبي أهاج كثيرة قبيحة كرهت أن أوردها عنه))[2].

ونلاحظ المراكشي أيضا عندما يترجم لأحد شعرائه يصرح بأنه ((تجنب الهجاء في كتابه، لأنه لا يستحسن أن ينقل الإقذاع والفحش))[3]. وأن كثيرا من الأدباء الأندلسيين صانوا كتبهم عما يدنسها كما يرون، فنفح الطيب والحلة السيراء والقلائد والمطمح والمطرب وغيرها من المؤلفات الأندلسية التي لم تحفظ لنا شيئا من الهجاء إلا أبيات قليلة جدا، وقد يكون للخلق الديني أثره في هذا الإحجام سواء كان في التدوين أو في الإنشاء[4].

ومما تجدر ملاحظته أن الهجاء السياسي الذي كان معروفا لدى المشارقة لم يشكل نسبة يعتد بها في الشعر الأندلسي، خلال تلك الحقبة الزمنية، وإن تكن ملامحه البسيطة قد ظهرت بشكل لا يشكل ظاهرة شعرية لافتة للنظر، بل أن السائد آنذاك هو الهجاء الشخصي، لاسيما السطحي منه[5]، على الرغم من إنكار الدكتور محمد كامل الفقي لوجوده، معللا ذلك بمجاورة الأندلس لأوربا واتحاد كلمة المسلمين ضد أعدائهم، وبسطة العيش في الأندلس وما إلى ذلك من الأمور التي لا تساعد على ظهور هذا اللون من الهجاء[6].

ويلاحظ أيضا على شعر الهجاء في الأندلس في هذه الحقبة ميله إلى المقطعات القصيرة، وذلك لأن الحياة الأدبية بصورة عامة كانت تميل إلى عدم الإطالة، لاسيما الهجاء الذي يركز فيه الشعراء على معاني محددة تسرع في إيلامها للمهجو، وتخلو من فضول الكلام، وكان النقاد يقرون هذه الحقيقة بقولهم ((إن جميع الشعراء يرون أن قصر الهجاء أجود، وترك الفحش فيه أصوب إلا جرير))[7].

وعلى الرغم من علاقة المديح بالهجاء منذ أقدم العصور، إلا أننا بالقدر الذي نلاحظ فيه كثرة مدح الخلفاء والأمراء، نرى قلة الهجاء فيهم، وهذا يعود نتيجة إلى المركز الديني

(1) الذخيرة: ق1م2/ 61.
(2) جذوة المقتبس: 647/2.
(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: المراكشي: 374.
(4) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين: 243.
(5) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: 175.
(6) ينظر: في الأدب الأندلسي: محمد كامل الفقي: 16.
(7) العمدة: 172/2.

الذي يتمتعون به بصفتهم أمراء المسلمين، فضلا عن عدم تساهلهم مع الذين يحاولون النيل من مكانتهم الاجتماعية أو المساس بهيبتهم، كما فعل الناصر مع الرمادي عندما حاول أن يعترض على أمره الذي حضر فيه تناول الخمر، وأمر بإراقتها وعدم بيعها، فأودعه السجن، وبقي يستعطفه مدة طويلة[1].

فكان الهجاء منصبا على موظفي الدولة، لاسيما القضاة منهم، كما نلاحظ هجاء الغزال للقاضي يخامر، وأخيه القاضي معاذ، وكان هجاؤه لهما منصبا على مماطلتهما وتسويفهما للعهود والمواعيد التي يقطعونها، فله في القاضي يخامر[2]:

أنجزْ فَدَيتُكَ ما وعدْتَ فإنَّ لي ... بالقولِ والإنجازِ قولاً حاضِرا

واعلمْ بأنَّ من الحزامةِ للفتى ... ألا يرُدَّ بغيرِ نجحٍ شاعرا

والذي يبدو على هجاء موظفي الدولة أن الشاعر يقلل فيه من التعريض بشكل المهجو أو نسبه أو نسائه، إنما يميل إلى هجائه في علمه وبلادته ومكانته، كما يلاحظ فيه الميل إلى السخرية والتهكم، فنرى الغزال يقول في القاضي يخامر ساخرا[3]:

لقد سمعتُ عجيباً ... من آبداتِ يُخامرْ

قرا عليهِ غلامٌ ... طه وسورةَ غافرْ

فقالَ من قال هذا؟ ... هذا لعمري شاعرْ

أردتُ صفعَ قفاهُ ... فخفتُ صولةَ جائرْ

أتيتُ يوماً بتيسٍ ... مستعبراً متحاسرْ

فقلتُ قوموا اذبحوهُ ... فقال: إنّي يخامرْ

(1) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 285.
(2) ديوان الغزال: 70.
(3) المصدر نفسه: 71.

ونرى لابن عبد ربه مقطعة يعرض فيها بأحد موالي السلطان، فيصف لؤمه وبخله وعدم امتلاكه القدرة على قضاء الحوائج وإن كانت بسيطة، فقال فيه عندما ترجاه في إطلاق محبوس لديه فتلكأ فيه[1]:

حاشا لِمِثلِكَ أنْ يَفُكَّ أسيرا ... أوْ أنْ يكونَ مع الزَّمانِ مُجيرا

لبستُ قوافي الشِّعْرِ فيكَ مُدارعاً ... سوداً وصَكتْ أوجُهاً وصدُورا

هلا عطفْتَ برحمةٍ لمّا دعتْ ... ويلاً عليكَ مدائحي وثبورا

لو أنَّ لومَكَ عادَ جوداً عُشرُهُ ... ما عادَ عندكَ حاتماً مذكورا

وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الشعراء لا يستطيعون أن يذموا الحاكم أو الأمير، ولا يتمكنون من هجائه، إلا أننا نجد القلفاط الشاعر الذي عرف بالهجاء واشتهر به[2]، يتمكن من التعريض بالأمير عبد الله ويقول فيه من مقطعة[3]:

ما يَرتَجي العاقلُ في مدةٍ ... الرّجلُ فيها موضعُ الرّأسِ

وكذلك له أبيات في هجاء أمير إشبيلية إبراهيم بن الحجاج[4].

أما الغالب في هذا الميدان فهو هجاء الشعراء لأعداء الخليفة ونستدل على ذلك من هجاء أحد شعراء قرطبة لأمير لورقة عبد الرحمن بن وضاح، عندما وقع أسيرا بيد الخليفة الناصر لدين الله سنة 312هـ، إذ أخذ يعرض به ويستهزئ بمنظره من مقطعة يقول فيها[5]:

أتى ابنُ وضاحٍ بالوضَّاح قرطبةً ... قد قدَّم الكلبَ ليسَ الكلب مؤذينا

أتى ولحيتُهُ في الأرضِ مسبلَةً ... نراهُ حيناً ويخفى بينها حينا

تجيءُ في كلِّ يومٍ من خصائِلِهَا ... وليسَ ينقصُها سبعونَ عثنونا

---

(1) ديوان ابن عبد ربه: 80.
(2) ينظر: طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، 1954: 152.
(3) المغرب في حلى المغرب: 111/1.
(4) المصدر نفسه: 111/1.
(5) التشبيهات: 285.

أما هجاء أصحاب الحرف، فكان قليلا جدا، إذ كان يؤكد فيه الهجاؤون على المعاني التي تنفر الناس عنهم وتجعلهم غير صالحين للحرف التي يرتزقون منها، فالغناء بوصفه حرفة لاقى نقدا وهجاء لاذعين، لاسيما أن مهندس الغناء في الأندلس زرياب قد هجاه الشعراء، فنرى للغزال[1] أهاجي فيه، ولمؤمن بن سعيد (ت 276هـ)، أخرى بقوله[2]:

تبـــاركَ مـــن أذَلَّ الخـــزَّ حتّـــى تمَعَّـــكَ فيـــه أفـــواهُ الكـــلابِ

ومـــنْ جعـــلَ الغـــواني ســـائلاتٍ علـــى أصـــداغِ أســـودَ كـــالغرابِ

ولإسماعيل بن بدر (ت 351هـ)، هجاء في مغنية يقول فيه[3]:

فأســـمَعَنَا درداءَ صـــلعاءَ رَجَّعـــتْ بصـــوتٍ لهـــا تســـتَكُّ منـــهُ المســـامِعُ

فـــواللهِ لا أدري كـــلابٌ تهارشـــتْ بحلقومِهـــا أم نَقْنَقَـــتْ بـــي ضـــفادِعُ

أما في هجاء الشعراء، فلم نجد سوى مقطعة لابن هذيل فيها تعريض بشعر شاعر وهجاء لشكله، بقوله[4]:

فتـــىً بـــاردُ الأشـــعارِ يفضُـــعُ لفظُـــهُ بهـــا وهـــوَ منحـــوسُ الجبـــينِ شـــتيمُ

يقـــرِّبُ وجهـــاً منـــكَ فـــي خلـــفِ قريـــةٍ كـــأنَّ انهـــدالَ الأنـــفِ منـــهُ قـــدومُ

أما دوافع الهجاء فهي مختلفة، فبعضها يكون بدوافع نفسية، يسودها السخط والغضب والانفعال العاطفي، كما نلاحظ ذلك عند عائشة بنت أحمد القرطبية[5]، عندما طلب يدها شاعر ليس بكفء لها، فقالت فيه مفتخرة بنفسها هاجية إياه[6]:

أنـــا لبـــوةٌ لكننـــي لا أرتضـــي نفســـي مناخـــاً طـــول دهـــرٍ مـــن أحـــدْ

(1) ديوان الغزال: 32.
(2) المقتبس: لابن حيان، نشره شالميتا، تحقيق كرونيطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، 1979: 197/5.
(3) التشبيهات: 257.
(4) شعر ابن هذيل: 111.
(5) عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية، كانت تمدح ملوك زمانها، ينظر ترجمتها في: تاريخ الأدب الأندلسي: 23.
(6) الشعر النسوي: 58.

ولــو أنّنــي أختــارُ ذلــك لــم أجــبْ كلبــاً وكــمْ أغلقــتُ ســمعيَ عــن أســدْ

ويبدو أن من الشعراء من وجد في عيوب الناس مجالا للترفيه عن نفوسهم وإثارة الضحك والسخرية بهجائهم اللاذع، فقال عبد الله بن كليب (ت 306هـ)، في أنف الزهري[1]:

أنفُــكَ يــا زهــرُ فــي قُبحِــهِ كأنَّــهُ فــي صــورةِ البــوقِ

يقعــدُ فــي البيــتِ لحاجاتِــهِ وأنفُــهُ يمضــي إلــى السُّــوقِ

وكان دافع التَّرفيه عن النفس مرتبط بدافع السخرية والضحك، كما نلاحظ ذلك عند الأمير عبد الله، وهو يسخر من أحد وزرائه بقوله[2]:

أنــتَ يــا نضــرُ آبــدهْ لســتَ تُرجــى لفائِــدَهْ

ويكون الهجاء بدافع الحرمان من العطاء، فنرى الشاعر الغزال يهجو خالدا عندما مدحه ولم ينل منه شيئا سوى دراهم واصفا إياه بالبخل فقال[3]:

قصــدتُ بمــدحي جاهــداً نحــوَ خالــدٍ أُؤمِّــلُ مــن جــدواهُ فــوقَ مُنــائي

فلــمْ يُعطنــي مــن مالِــهِ غيــرَ درهــمٍ تَكَلَّفَــهُ بعــد انقطــاعِ رجــائي

كمَــا اقْتَلَــعَ الحَجَّــامُ ضرسَــاً صــحيحةً إذا اســتخرجتْ مــن شــدَّةٍ ببكــاءِ

أما الدوافع الأخلاقية[4]، فلم تكن أقل أهمية من الدوافع الأخرى كأن يعيب الشاعر شخصاً اتصف بصفةٍ لا تتناسب والأخلاق العربية والإسلامية إذ كانت صفة البخل من أهم الصفات التي استوقفت الشعراء الأندلسيين هاجين من اتصف بها، فنرى سليمان بن عبد الله البردي يرسم صورة لمن يطلب المال من بخيل مشبها إياه بالذي يسأل طللا ويريده أن يجيب بقوله[5]:

---

(1) التشبيهات: 58.
(2) البيان المغرب: 154/3.
(3) ديوان الغزال: 41.
(4) ينظر: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: د. محمد محمد حسين، نشر مكتبة الآداب، مطبعة أحمد مخيمر، 1947: 20.
(5) التشبيهات: 252.

كـــأنَّ مُرَجِّيـــهِ المؤمِّـــل واقـــفٌ علـى طلـلٍ مـن ساكنِ الحـيِّ بائـدِ

يســـائلُ منـــهُ صـــامتاً غيـــرَ نـــاطقٍ كمســـتخبِرٍ جهـــلاً رســـومَ المعاهِـــدِ

إلا أن ابن عبد ربه يرسم صورة لهؤلاء البخلاء بأنهم صم صلاب، وتتدخل عصا موسى في الصورة، إلا أنها لم تفلح أن تفجر منهم شيئا، بقوله[1]:

حجـــارةَ بخـــلٍ مـــا تجـــودُ ورُبَّمَـــا تَفَجَّـــرَ مـــن صـــمّ الحجـــارةِ مـــاءُ

ولـو أنَّ موسـى جـاءَ يضـربُ بالعصـا لمـا انبجَسَـتْ مـن ضـربِهِ الـبُخلاءُ

ونرى الشاعر عبادة بن ماء السماء (ت 419هـ)[2] وهو يهجو من تأصلت فيه صفة الكذب، مبينا أنه رضع الكذب ممزوجا باللبن منذ نعومة أظفاره، وفي ذلك تصوير قاس لشخصية المهجو إذ يقول فيه[3]:

(1) ديوان ابن عبد ربه: 15.

(2) هو عبادة بن عبد الله الأنصاري الخزرجي، عاش في المدة العامرية، وأدرك دولة بني حمود، ومدح أمراءها، اختلف في تاريخ وفاته، والراجح أنها سنة 419هـ، ينظر ترجمته في: فوات الوفيات: 425/1.

(3) التشبيهات: 259.

مُذْ كنتَ لا تنفَكُّ تخبرُ عن حديثٍ لم يكنْ

فكأنَّما غذيتَ طفلاً بالكذابِ مع اللّبَنْ

وقد يكون الهجاء بدوافع عنصرية، وهذا يدخل ضمن الهجاء السياسي، ويكاد يكون معروفا في الأندلس وقد حفظ لنا التاريخ شيئا منه عند بدء الشرارة الأولى بين المولدين من جهة والعرب من جهة أخرى، فنرى الشاعر العبلي شاعر المولدين يغتنم فرصة إعمار العرب لحصن غرناطة، فيقول[1]:

منـــازِلُهُمْ مـــنهم قفـــارٌ بلاقِـــعُ تُجـاري السَّفا فيهـا الرِّيـاحُ الزَّعـازِعُ

وفـي القلعَـةِ الحمْـراءِ تـدبيرُ زيغِهِـمْ ومنهـا علـيهِمْ تسـتديرُ الوقـائعُ

كمـا جـدَّدتْ آبـاؤُهُمْ مـن خِلالِهـا أسِـنَّتنا والمُرهفـاتُ القواطِـعُ

فيقول أبو الرجا بن سعيد فاشتد ذعرنا بهذه الأبيات، حتى لو أحاطت بنا عساكر الأرض ما وجدنا مزيدا من الذكر، فحركنا شاعرنا المعروف بالأزدي شاعر العرب القائم فيهم مقام العبلي عند المولدين فقال[2]:

منازِلُنَـا معمـورةٌ لا بلاقِـعُ وقلعَتُنَـا حِصْـنٌ مـن الضَّـيْمِ مـانِعُ

وفيهـا لنـا عـزٌّ وتـدبيرُ نُصـرَةٍ ومنهـا علـيكُمْ تسـتَتِبُّ الوقـائِعُ

ألا فـأذَنوا منهـا قريبـاً بوَقْعَـةٍ تشـيبُ لهـا ولـدانُكُمْ والمَرَاضِـعُ

والملاحظ أن معاني هذه المقطعة تدور في فلك المعاني التي طرقها العبلي، وتحاول أن تنقضها، كما أنها جاءت بنفس الوزن والقافية، وكأنه يدخلها في فن النقائض، كما نلاحظ اشتراك الغضب والحماسة وتداخلهما في تلك المقطوعتين وهذا قد يكون صفة عامة في الهجاء السياسي.

(1) تنظر هذه الواقعة في ديوان سعيد بن جودي الألبيري: 37-38، كما ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 134.

(2) ديوان سعيد بن جودي الألبيري: 38.

ومن الملاحظ أيضا على شعر الهجاء الأندلسي ميله إلى النثرية في ألفاظه، والشعبية في أسلوبه، كي يؤمن له الاتصال بالنفوس ويكفل له التداول على ألسنة الناس، وبالنتيجة يحقق الشاعر الغاية التي يبتغيها، فنرى ابن عبد ربه يقول من مقطعة له[1]:

وأيّامٍ خَلَتْ من كُلِّ خيرٍ ودُنيا قَدْ تَوَزَّعَها الكِلابُ

كلابٌ لو سألتَهُمُ ترابا لقالوا: عندَنا انقطَعَ الترابُ

فيبدو أن نفسية ابن عبد ربه، جعلته يرى أن الحياة خالية من كل خير، وأن من فيها كلاب معبرا عن ذلك بألفاظ تميل إلى البساطة والوضوح وأسلوب يقترب من النثر.

4. المديح:

لا يختلف شعر المديح في الأندلس عما هو عليه في المشرق، فقد بقي الشعراء الأندلسيون يطرقون المعاني التقليدية نفسها، التي كانت شائعة في القصيدة العربية، من كون الممدوح شجاعا قويا مقداما مدافعا عن الإسلام وناصرا للمظلومين كريما يجود بنفسه إذا اقتضت الضرورة[2].

إذ أن الصفات التي أضفوها على ممدوحيهم هي نفس الصفات القديمة التي سبقهم إليها مدّاحو المشرق[3].

وأن أول ما يطالعنا من مقطعات مدحية قول إبراهيم بن سليمان الشامي، في الأمير عبد الرحمن مادحا إياه بتلك الصفات، مؤكدا جانب الكرم الذي تميز به هذا الأمير بقوله[4]:

يا مَنْ تعالى من أميةَ في الذُّرى قدراً فأصبحَ عاليَ الأركانِ

إنَّ الغمامَ غياثُهُ في وقتِهِ والغيثُ من كفَّيكَ كلَّ أوانِ

فالغيثُ قد عمَّ البلادَ وأهلَها وضمئتُ بينهمْ فبلَّ لساني

ونرى عباس بن ناصح (ت 230هـ)، يؤكد على المعاني، التي طرقها الشامي، فله في الحكم الربضي بعد أن أغاث الناس في عام مجاعة مقطعة يقول فيها[1]:

---

(1) ديوان ابن عبد ربه: 25.
(2) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس: 101.
(3) ابن سارة الشنتريني حياته وشعره، د. أحمد النوشي، دار ومكتبة الهلال: 56.
(4) نفح الطيب: 121/3.

نكـــدَ الزّمـــانُ فآمنـــتْ أيامُـــهُ أنْ لـــنْ يكـــونَ بعصـــره كســـرُ

طلـــعَ الزّمـــانُ بأزمـــة فجلـــى لـــهُ تلـــكَ الكريهـــة جـــوده العمـــرُ

والملاحظ أن المدح في هذه الحقبة الزمنية كان منصبا نحو الخلفاء والأمراء والقادة، بل كان لها حضورها الذي لا بأس به.

ولابن عبد ربه عدد من المقطعات المدحية، أغلبها جاء في مدح الخليفة الناصر لدين الله، فضلا عن القصائد الطوال التي قيلت فيه، ففي أول ركوّ ظاهر للخليفة الناصر في خلافته، إذ كان مركبه فخما نبيلا، وقد ملأ قلوّ رعيته بهجة ومسرة، فكان ابن عبد ربه راصدا لهذا المركّ متخذا له مناسبة لمديحه، وقد جاءت معانيه بعيدة عن الجدة بل كانت تقليدية، إلا أنها أضفت على الخليفة صفة الكرم والجود، مشبها إياه ببحر الندى، والبدر المضيء بقوله[2]:

بـــدرٌ بـــدا مـــن تحتِـــهِ أبلـــقُ يحســـدُ فيـــه المغـــربَ المشـــرِقُ

لمّـــا بـــدا لـــلأرضِ مســـتبهِجاً كـــادت لـــهُ عيـــدانُها تـــورقُ

لـــو يعلـــمُ الأبلـــقُ مـــا فوقَـــهُ لاختـــالَ عـــن عُجُـــبٍ بـــه الأبلـــقُ

إمـــامُ عـــدلٍ باســـطُ كفِّـــهُ يـــرزقُ منهـــا اللهُ مـــا يـــرزقُ

وكاد (النصر) أن يكون المناسبة الأكثر وضوحا في ميدان المقطعات المدحية، التي كانت تنظم في الخلفاء والأمراء والقادة، إذ أن سرعة الموقف وخطورته في الحرّ تجعل الشاعر يبتعد عن الإطالة والاستهلال ونبذ المقدمات والدخول في المديح مباشرة[3].

والحقيقة أن ابن رشيق القيرواني قد رسم المنهج الذي يجّ أن يسير عليه الشعراء في مدح الملوك والخلفاء بقوله: ((إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة، وإنما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع لغيرهم بذله))[1].

(1) المصدر نفسه: 161/1.
(2) ديوان ابن عبد ربه: 122.
(3) ينظر: الحروّ الصليبية وأثرها في الشعر العربي، د. محمد علي الهرفي، النادي العربي، الرياض، 1400هـ-1980: 59.

ونلاحظ أن ابن عبد ربه لا يبتعد عن هذا المنهج عندما يمدح الخليفة الناصر لدين الله بعد انتصاره في غزوة (المنتلون)[2]، بل سار مع ما ينسجم وهذه المبادئ بقوله[3]:

يمضـــي أمامـــكَ نصـــرُ اللهِ منصـــلتاً ... بـالفتحِ يقصـمُ مـنْ فـي الأرضِ ناواكـا

والنّـــاسُ يـــدعونَ والآمـــالُ راغبـــةٌ ... والطّـوعُ يرجـوكَ والعصـيانُ يخشـاكا

ومـــن يمينـــكَ بـــدرٌ مـــا لـــهُ فلـــكٌ ... ولـــن تـــرى لبـــدورِ الأرضِ أفلاكـــا

يقـــودُ جيشـــاً إلـــى الأعـــداءِ مرتجســـاً ... عرمرمـــاً يتـــركُ الآكـــامَ دكـــداكا(4)

كما اتخذ الشعراء البيعة مناسبة لقصائدهم ومقطعاتهم المدحية، إذ أنها تعد مناسبة سياسية كبيرة، فكان كل والٍ جديد يبايعه عامة الناس وخاصتهم من الوزراء ورجال السياسة والدين، في يوم مخصوص يحتشد فيه الناس في مكان ما، تحدده الجهات المسؤولة، فتتم البيعة بعد ذلك بموافقة الناس يتولى بموجبها الأمير الجديد السلطة[5]، فنرى ابن عبد ربه يقول في بيعة الأمير الناصر بقرطبة[6]:

يـــا مـــنْ عليـــهِ لبـــاسُ البـــأسِ والجـــودِ ... من جودِ كفّكَ يجري المـاءُ فـي العودِ

لمّـــا تطلّعـــتَ فـــي يـــومِ الخمـــيسِ لنـــا ... والنّـــاسُ حولـــكَ فـــي عيـــدٍ بـــلا عيـــدِ

وبـــادرت حولـــكَ الأبصـــارُ واكتحلـــتْ ... بحُســـنِ يوســـفَ فـــي محـــرابِ داودِ

ومثلما اتخذ الشعراء الانتصارات والبيعة مناسبة للمديح اتخذوا الرثاء أي رثاء الأمير الذاهّ، مناسبة لمدح الأمير القادم، وعلى الرغم من براعة الشعراء في المزج بين غرضي الرثاء والمديح، إلا أن أشعارهم هذه تكون باردة ولا يمكن أن نتلمس لها أثرا في

---

(1) العمدة: 130/2.

(2) المنتلون: هي أولى غزوات الناصر لدين الله، حيث أمر بالاستعداد لها سنة 300 هـ، واستجاّ له جند الشام، أهل كورة ألبيرة، واستتبت أمور هذه الغزوة في نفس العام، ينظر: ديوانه: 126-127.

(3) ديوان ابن عبد ربه: 128.

(4) مرتجسا: مرعدا، ينظر: لسان العرّ، مادة (رجس).

(5) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ضبط الحواشي وعلق على الفهارس الأستاذ خليل شحاذة، دار الفكر، ط2، 1408هـ-1988: 261/1-262.

(6) ديوان ابن عبد ربه: 54.

الحياة ولا تأثيرا في نفس المتلقي[1]. إذ أن هذا المزج بين الأ غراض يتطلّ نفسا طويلا، فجاء أغلبه على شكل قصائد، إلا أننا لا نعدم وجود مقطعات في هذه المناسبة، فنلاحظ عباس بن فرناس يمدح الأمير محمد بن عبد الرحمن، ويهنئه بعد تعزيته لأبيه بقوله من مقطعة[2]:

ما غابتِ الشّمسُ حتّى أشرقَ القمرُ محمدٌ فارتضاهُ اللهُ والبشرُ

والملاحظ على المقطعات المدحية في هذه الحقبة غلبة الطابع الديني عليها، لاسيما أن أغلّ معارك هؤلاء الخلفاء والأمراء هي معارك جهاد وفتح إسلامي، ودفاع عن الحق، وأن إضفاء الصفات الدينية على الممدوح يكون بدوافع متعددة منها الإيمان العميق والثبات على الحق، إذ تكون للممدوح قدسية خاصة تحيط به، وقد يكون بدافع الحس القومي الذي يربط الشاعر بالممدوح، فضلا عن دافع التكسّ الذي حتم على الشاعر أن يقع في الغلو والمبالغة التي توصل صاحبها إلى الضلال، فنرى ابن عبد ربه عندما يمدح إبراهيم بن الحجاج والي إشبيلية يجعل من زيارته حجا ومن مدحه رباطا وجهادا بقوله[3]:

أمن يمنٍ يكونُ الجّودُ خلواً وإبراهيمُ حاتمُها الجّوادُ

زيارتُهُ لمن يأتيهِ حجٌّ ومدحتُهُ رباطٌ أو جهادُ

وما لي في التّخلُّفِ عنهُ عذرٌ ولي في الأرضِ راحلةٌ وزادُ

ويتكئ المصحفي أيضا على قيم مستمدة من الدين والشريعة، فطاعة الخليفة من طاعة الله، كما يرى في مقطعته التي يهنئ فيها الحكم المستنصر بالخلافة بعد مبايعته فيقول فيها[4]:

إمامٌ تلقّتْهُ الخلافةُ صُبَّةً إلى نسمٍ ممحولةٍ عن إمامها

فصارت إليهِ في حدودِ تمامهِ وصار إليها في حدودِ تمامِها

(1) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث، د. نافع محمود: 166.
(2) المقتبس: تحقيق محمد علي مكي، دار الكتاّ العربي، بيروت، لبنان، 1973: 124.
(3) ديوان ابن عبد ربه: 55.
(4) ما تبقى من شعر الحاجّ المصحفي، مجلة آداّ المستنصرية، العدد (12)، 1985: 199.

فلـــم ينتقـــلْ بالنـــاسِ يـــومَ انتقالِهـــا إليـــهِ ســـبيل عـــن محـــلِّ قوامِهـــا

أتـــوهُ فـــأعطوهُ المواثـــق عـــن هـــوىً تمكّـــنَ فـــي أبشـــارها وعظامِهـــا

وناولهـــا كفّـــاً يطـــول الهـــدى بهـــا رضـــا اللهِ فـــي تقبيلهـــا واســـتلامها

لقد كانت المبالغة صفة من الصفات التي لازمت المقطعات المدحية في هذه الحقبة، فـ نرى خلف بن أيوّ (ت 350هـ)، يقول في الأمير سعيد بن المنذر الأموي[1]:

إذا خفقـــتْ أعلامُـــهُ خفقـــتْ لهـــا قلـــوبُ ذوي الإلحـــادِ تحـــتَ التّرائـــبِ

وإن ناشـبَ الحـربَ العـدا لقـي الـرّدَى مناشـبةَ العجـلانِ فـي حـال ناشـبِ

هـــو البحـــرُ لا ملـــحٌ أجـــاجٌ مذاقُـــهُ ولكنّـــهُ بحـــرٌ لذيـــذُ المشـــاربِ

ومما تم ملاحظته على هذه المقطعة أن الشاعر شأنه شأن من عاصره من الشعراء في اغترافه من قاموس المديح، فكان همهم في ذلك الإكثار من الثناء والإشادة بصفات الممدوح، مما يبعث في نفسه الخيلاء وروح العظمة.

وأحيانا تكون هذه المبالغة مطبوعة بالطرافة والجدة، فعندما اشتملت إحدى جواري الخليفة الحكم (المستنصر) على حمل، وكـ ان الحكم شديد الكلف بطلّ الولد، انبرى المصحفي لهذه الواقعة متخذها مناسبة للمدح مهنئا الخليفة بقوله[2]:

هنيئـــــاً للأنـــــامِ وللإمـــــامِ كـــــريمٌ يســـــتفيدُ علـــــى الكـــــرامِ

مرجّـــىً للخلافـــة وهـــو مـــاءٌ ومـــــأمولٌ لآمـــــالٍ عظـــــامِ

أضـــاءَ علـــى كريمتِـــهِ صـــباهُ فلـــمْ تعلـــمْ بغاشـــيةِ الظّـــلامِ

ولِـــمْ لا يُستضـــاءُ بجانبيهـــا وبـــين ضـــلوعها بـــدرُ التّمـــامِ

(1) بغية الملتمس: 352/1.
(2) مجلة آداّ المستنصرية، العدد 12، 1985: 197.

ويبدو من خلال هذه الأبيات أن المبالغة والطرافة والجدة واضحة، فإن الجارية استمدت قبسا من ضياء الخليفة فأشرقت به فأضاء ما حولها وكيف لا وبين ضلوعها بدر التمام؟

والملاحظ أيضا ابتعاد المقطعات المدحية عن الألفاظ المعجمية، فتميزت ببساطة ألفاظها وخلو تراكيبها من التعقيد، فاستخدم الشعراء فيها ألفاظا تقريرية ساذجة كما في قول ابن عبد ربه في الأمير المنذر بن محمد[1]:

بالمنذرِ بن محمدٍ شَرُفَتْ بلادُ الأندلسْ

فالطّيرُ فيها ساكنٌ والوحشُ فيها قد أنسْ

أما في عصر الحجابة، فقد كانت الحاجة إلى الشعراء المداحين ملحة، نتيجة لحجّ الحاجّ المنصور الخليفة هشام المؤيد عن السلطة الفعلية، وسيطرته على مقاليد الحكم في البلاد، فقد أدرك حاجته الشديدة للشعر بوصفه وسيلة من الوسائل المهمة التي تثبت شرعيته في الحكم، فاتخذ منهم أبواقا دعائية، ولسانا ناطقا باسمه، فكان يصطحبهم معه في غزواته لتسجيل انتصاراته[2]، وكان له ديوان خاص بالشعراء يكتّ فيه الأسماء ويجري لهم العطاء[3].

كل هذا جعل المديح في مقدمة الأغراض الشعرية التي نشطت نشاطا ملحوظا في هذه الحقبة، ويعد ابن دراج القسطلي أكثر الشعراء نظما، وأكثرهم إعجابا بالمنصور بن أبي عامر، فله اثنتان وثلاثون قصيدة ومقطعة في مدح المنصور بن أبي عامر، وعدد آخر ذهّ في الخرم الذي وجد في النسخة الخطية كما يرى محقق ديوانه[4]، فضلا عن قصائد ومقطعات أخرى قيلت في أمراء وقادة آخرين، وأن أغلّ قصائده ومقطعاته المدحية جاءت بدافع التكسّ، إذ نظم ما أعجّ المنصور فأعطاه مائة دينار على قصيدة واحدة، وأجرى عليها الرزق وكتبه في ديوان العطاء[5]، فبقي يعمل في خدمة الحكام والرؤساء من المنصور بن أبي عامر إلى يحيى بن منذر التجيبي، وأن عمله هذا فرضته عليه ظروف

(1) ديوان ابن عبد ربه: 94.
(2) ينظر: الأدّ الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 276-277.
(3) ينظر: تاريخ الأدّ الأندلسي عصر سيادة قرطبة: 190-192.
(4) ينظر: ديوان ابن دراج، المقدمة: 29.
(5) ينظر: الأدّ الأندلسي عصر سيادة قرطبة: 192.

اجتماعية خاصة وعامة، فأما الخاصة فإنه كان من بيت سيادة وشرف في سرقسطة، وأنه كان يعيش حياة ناعمة ومترفة، فلما زال سلطان قومه اضطر للبقاء متصلا بحياة القصور والخلفاء.

أما من الناحية العامة، فإنه عاصر حقبة الحجابة وهي مرحلة تسلط وظلم واستبداد، فكان يجّ عليه المدح كي ينجو من بطش الحكام، وعاصر أيضا الفتنة، حيث كان الضياع والخوف من التشرد يسيطر على الأندلس بصورة عامة، فكان الشاعر يبحث عن الأمان والاستقرار في ظل القوي[1].

ومن الملاحظ على مقطعات ابن دراج المدحية أن معانيها تقليدية وألفاظها بسيطة وواضحة على العكس من أسلوبه في قصائده المدحية التي اعتمد فيها التكلف والغرابة[2].

ففي معرض مديحه لأبي عامر نراه يؤكد صفة الكرم التي تميز بها بقوله[3]:

إن أقلعتْ ديَمُ السّحابِ فلمْ تجُدْ فسحابُ كفّكَ ما يزالُ يجودُ

ولئن طوى عنّا الرّبيع ثيابَهُ فربيعُ جودِكَ شاهدٌ مشهودُ

لا زالت الدنيا وأنت لأهلها مولىً ونحنُ لراحتيكَ عبيدُ

وكان يرى فيه الدواء من ك ل داء، فيجلي به الهموم ويهزم به الخطوّ إذ كان الأمين له من ظلم الأعادي بقوله[4]:

رهينةُ كلِّ همٍّ مستكِنٍ ونهزةِ كلِّ خطبٍ مستطيلِ

ومأمونٍ على ظلمِ الأعادي ونوَّامٍ على نوبِ الذّحولِ

إلا أن ابن دراج لم يقتصر في مدحه على المنصور بن أبي عامر، فنراه يمدح عبد الملك المظفر بعد غزوة (ممقصر)[5] بقوله[6]:

(1) ينظر: الأدّ الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 309.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 311-314.
(3) ديوان ابن دراج: 26.
(4) المصدر نفسه: 539.
(5) ممقصر: اسم حصن من أهم الحصون في برشلونة وكانت أول غزوات عبد الملك بن المنصور سنة 393هـ، بعد موت أبيه، ينظر: تاريخ الأدّ، ليفي بروفنسال، ترجمها إلى العربية محمد عبد الهادي شعيرة، وراجعه عبد الحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951: 285/2.
(6) ديوان ابن دراج: 450-451.

غـــزوتَ فأُعطيـــتَ نصـــراً عزيـــزا وصُـــلتَ فوفَّيـــتَ فتحـــاً مبينـــا

بســـيفٍ ضـــربتَ بـــه فـــي الإلـــهِ فـــأعززتَ مُلكـــاً ودينـــا ودينـــا

وبلـــــدةِ شـــــركٍ تيَمَّمتَهـــــا فغادرتَهـــــا آيـــــةَ السّـــــائلينا

ودائـــــعُ مجـــــدٍ تقلّـــــدتَّها فكنـــتَ عليهـــا القـــويَّ الأمينـــا

ويلاحظ على هذه المقطعة البساطة في الأسلوب، وتأكيد المعاني الإسلامية السامية، حيث سيف الممدوح كان يضرب باسم الله وقوته، وكان نصره عزاً للدين والمسلمين، وأن فتحه هذا نصر يتوج به، ويضاف إلى مجد آبائه وأجداده.

إلى جانب مدح الشاعر للحاجب المنصور كان هناك سيل من المقطعات في المدائح السياسية التي اختلطت فيها مصلحته الخاصة بمطالب الأمة.

فعندما عصفت الرياح بقرطبة اضطر ابن دراج إلى مغادرتها، فاتجه إلى سبتة، ولم يلبث أن عاد إلى الأندلس، وقصد بعد ذلك عدة أقاليم أندلسية مادحا أمراءها، مؤملا أن يجد الاستقرار في بعضها، إلا أنه عجز عن تحقيق أمله، وأخيرا قصد إقليم سرقسطة، حيث كان المنذر بن يحيى التجيبي يلي الأمر فيها، فنعم بكثير من الاستقرار في ظل هذا الحاكم[1]، الذي أغرقه بكرمه وأفضاله، يقول فيه[2]:

يـــا عـــاكفين علـــى المُـــدامِ تنبَّهـــوا وســـلوا لســـاني عـــن مكـــارمِ مُنـــذِرِ

ملـــكٌ لـــو اســـتوهبتَ حبَّـــة قلبِـــهِ كَرَمـــاً لجـــادَ بهـــا ولـــم يتعـــذرِ

وكان كثير المدح لهذا الأمير الذي آواه وأطعمه بعد أن حرمه الناس، فله فيه مقطعات يصف فيها أخلاقه في القتال، وذلك كونه لا يقتل الأسرى، ويصف شجاعته بأنه كثير الطعن في الحرّ وأن سيوفه موقعها الطلى ورماحه في الكلى، أي أنها لا تخطئ هدفها وأن النصر حليفه، فيقول[3]:

بعـــد ضـــربٍ مـــا قتلُـــهُ لمقيـــدٍ وطعـــانٍ مـــا جُرحُهـــا بقِصـــاصِ

(1) الشعر الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 307.
(2) ديوان ابن دراج: 542.
(3) ديوان ابن دراج: 525.

وابتـــدارِ النّجـــاءِ وهـــو غـــلاءٌ بنفـــوسٍ علـــى الحتـــوفِ رخـــاصِ

تنطـقُ البـيضُ فـي الطُّلـى والعـوالي فـي الكُلـى أبشـري بفـوت الخـلاصِ

والحقيقـة أن ابـن دراج مـدح العديـد مـن الأمـراء والحكـام، فمـدح مجاهـد العـامري صاحّ دانية، وقصد مظفرا ومباركا العامريين صاحبي بلنسية كما مدح ابن حمود، إلـى أن استقر به المقام عند المنذر بن يحيى[1] كما أشرنا.

وليس كل شعراء هذه الحقبة كـان مـدحهم بـدافع التكسّ، فـ(الرمـادي) وهو علم مـن أعلام الشعر الأندلسي، كان مبتعدا عن المديح ولم يطرقه إلا في الحالات النـادرة، بـل وكأنـه ((كان ينظم الشعر للشعر لا هدفا للارتزاق))[2].

أما ما يراه الدكتور حازم عبد خضر، من أن ((ظاهرة المديح التكسبي ظـاهرة عامـة في شعر ابن شهيد ومن عاصره من الشعراء))[3]، فإنـه رأي لا يطمئن إليـه الباحـث، إذ أنـه جادّ الصوا، فإنه لم تكن هناك حاجة تدفع ابن شهيد إلى عمل يكس ّ منـه قوتـه وخاصـة أنه تولى المناصّ منذ صغر سنه، وأنه سليل أسرة عرفت بـالوزارة والرئاسـة[4]، فكـان فـي طـابع حياتـه الماديـة والاجتماعيـة مـا جعلـه يبتعـد عـن التملـق والتكسّ فـي الشـعر وهـو القائل[5]:

ومـــا لســـانيَ عنـــد القـــومِ ذو مَلَـــقٍ ولا مقـــالي إذا مـــا قلـــتُ إدهـــانُ

إلا أن هذا لا يمنع عاطفته الشعورية أن تطلق فتجود قريحتـه لمـن يجده أهلا للمدح وا لإعجا، فمـدح أبـا عـامر بـن المظفـر العـامري[6]، الـذي بقـي بقرطبـة علـى الـرغم مـن التقلبـات السياسية، ولـم يخـرج حتـى عهـد هشـ ام المعتـد، فقـال فيـه عنـدما طلّ منـه استخدام حمامه مرحبا بذلك ومهللا بقوله[7]:

شـــكرتُ للـــدّهرِ حُســـنَ مـــا صـــنعا طـــائرُ مجـــدٍ بجنَّتـــي وقَعَـــا

(1) ينظر: تاريخ الأدّ الأندلسي عصر سيادة قرطبة: 198-203.
(2) شعر الرمادي: 41.
(3) ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه: 80.
(4) ينظر: الأدّ الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 368.
(5) ديوان ابن شهيد: 65.
(6) ينظر: الذخيرة: ق1م1/ 201-202.
(7) ديوان ابن شهيد: 92-93.

نفـــرتُ لمَّـــا أيقنـــتُ جيئَتَـــهُ وطـــارت الـــنَّفسُ عنـــدها قِطَعَـــا
يـــا حُســـنَ حمّامِنـــا وقـــدْ غرُبَـــتْ شـــمسُ الضُّـــحَى فيـــه بعـــدما مَتَّعَـــا
أيقـــــنَ أنَّ الهـــــلالَ راكِبَـــــهُ فضـــــاءَ للحاضـــــرينَ واتَّسَـــــعَا
فـــــانعمْ أبـــــا عـــــامرٍ بنِعْمَتِـــــهِ واعجـــبْ لأمـــرينِ فيـــه قـــد جُمِعَـــا
نيرانُـــــهُ مـــــن زِنـــــادِكُمْ قُـــــدِحَتْ ومـــــاؤُهُ مـــــن بنـــــانِكُم نَبَعَـــــا

والملاحظ أن الشاعر يعبر عن فرحته بهذا الزائر الكريم، إلا أن هذا التعبير لا يخلو من المبالغة المفرطة، فقد جعل الماء ينبع من بنانه وناره تقدح من زناده، فضلا عما يعتلي هذه الصورة من التكلف والغرابة من مثل قوله (أيقنَ أنَّ الهلالَ راكِبَهُ) فإن هذه الصورة كانت جديدة، إلا أنها غريبة ومتكلفة.

ويبدو واضحا على المقطعات المدحية في عصر سيادة قرطبة أنها جاءت تقليدية من حيث المضمون والأفكار والمعاني. أما من حيث المنهج فلم تتقيد المقطعة بما تقيدت به القصيدة المدحية من حيث تعدد المـ وضوعات وتشعّ الأغراض، فهي، أي القصيدة المدحية، وإن تجاوزت ما خطه ابن قتيبة[1]، وقد تتخطى الأقسام الثلاثة التي أشار إليها غرسيه غومس، وهي المقدمة الغزلية والرحلة والمديح[2]، حتى أ خذ يعيّ على العربي هذا الهوان على محبوباتهم ونسائهم في توظيفهنَّ لغاية مادية[3]، متناسيا أن هذه الأسماء من النساء كانت في أحيان كثيرة من عالم الخيال وقد تكون رموزا لأشياء أخرى.

هذا وقد يعود سببّ تخلي المقطعة عن هذه المنهجية إلى قصر نفسها مما حتم عليها الدخول مباشرة إلى الغرض الأساس وهو ذكر صفات الممدوح.

(1) ينظر: الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1961: 74/1، إذ استن ابن قتيبة بقصيدة المديح الافتتاح بالأطلال وذكر الديار، ثم الغزل ووصف الناقة، والرحلة ثم المديح.
(2) ينظر: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، غرسيه غومس: 100.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 101.

5. الرثاء:

يعد الرثاء من أكثر فنون الشعر تأثيرا في النفوس لتعبيره عن حزن الشاعر العميق وفرط ألمه، لذا فهو أصدق الفنون الشعرية شعورا وأحفلها عاطفة، لأنه يصدر من قلب ملتاع، ونفس فقدت أثيرا وخليلا[1].

فلا يختلف الأندلسيون عن المشارقة في طبيعة الرثاء، فالمعاني واحدة، والتفكير واحد، والموت سنة الحياة، والرثاء هو تمجيد المفقود، وهو مقابل المديح للحي وأحسن الرثاء ما خلط مدحا بتفجع[2]، إذ لم يكتف الشعراء بتصوير شعورهم الحزين بل يضفون إليه إشادة بالميت ومناقبه[3].

وكانت سنة الشعراء أن يبدأوا مراثيهم بمقدمات يذكرون فيها أحوال المرثي وظروفه، وقلما نلاحظ قصيدة أو مقطعة في الرثاء بدأت بمقدمة غزلية، كما يرى ابن رشيق ((وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء))[4].

ومما يلاحظ في هذا العصر قلة المراثي قياسا بالمدائح، وهذا يدعونا إلى التمحيص في الأمر، إذ أننا لو استعرضنا دواوين الشعراء والمجاميع الأدبية لوجدنا هذه القلة واضحة، فديوان ابن عبد ربه بما ضم من قصائد ومقطعات لا تتجاوز مراثيه الثمان وحدات ما بين قصيدة ومقطعة، وديوان الغزال ضم مرثية واحدة جاءت على شكل مقطعة، أما مجموع شعر ابن هذيل فلا يحتوي على بيت واحد في الرثاء، وقد يعود سبب هذا النقص نتيجة لطبيعة الحكم الوراثي، فلم يجد الشعراء ضرورة لرثاء الخليفة الراحل، لأن نظرهم كان منصبا إلى الأمير الذي سيتولى مقاليد الأمور مهنئين له، إلا أنهم لم يلتزموا الصمت المطبق إزاء وفاة زعماء هذا العصر وعظمائه، وإنما سجلوا حضورهم من خلال بعض الأبيات التي تلقى في مثل هذه المناسبات، لغرض التقرب من الأسرة الحاكمة، إلا أننا وبالرغم من قلة هذه المراثي يمكن تقسيمها على ثلاثة اتجاهات:

---

(1) ينظر: التيار الإسلامي في العصر العباسي الأول: مجاهد مصطفى بهجت، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، سلسلة الكتب الحديثة (18)، ط1، 1983: 28.

(2) التعازي والمراثي: المبرد، تحقيق محمد الديباجي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، 1976: 27.

(3) الرثاء: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1955: 54.

(4) العمدة: 151/2.

أ. الرثاء الرسمي:

وهو رثاء الملوك والأمراء والوزراء وكبار القوم، ونلمس في هذا الشعر أحيانا المبالغة في تصوير الحدث والفاجعة، كما يذكر الشاعر بعض الحقائق التاريخية وهو يصف سجايا الفقيد، وأن أغلب هذه المراثي تكون خالية من العاطفة المخلصة والدموع الحارة، إلا النادر الشاذ، لأن الشعراء نظموها بدافع المجاملة والتقرب من الأسرة الحاكمة.

ولعل من أولى المراثي التي تطالعنا في هذه الحقبة، مقطعة عبد الله بن بكر الكلاعي، التي يرثي فيها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بقوله[1]:

ألا إنَّ في الدَّهرِ للمبصرينَ عجائبُ تُبهِرُ نُظَّارها

تسورُ المنايا فما من عزيزٍ يدافعُ بالعزِّ تسوارَها

وكانَ بالأمسِ سراجُ العلا يسوسُ البلادَ وأقطارها

على حين أحكمَ ريبُ الدُّهورِ وعرفُ الأمورِ وإنكارها

أتتهُ منيَّتُهُ بغتَةً وقد كان في الأرضِ جبَّارها

لقد بدأ مقطعته على سنة الشعراء وهي الدعوة إلى التفكير حيث المنايا تنصب شراكها وتعلي أسوارها، فما من أحد يستطيع التمرد والاستبداد أمام سلطة الموت، فالكل منقاد لها، وأن معانيها جاءت تقليدية من حيث الثناء على الميت والمبالغة في ذكر أوصافه.

ونرى لعبد الكريم بن عبد الواحد[2] مقطعة يرثي بها الحكم بن هشام ويهنئ بها ولده الأمير عبد الرحمن بن الحكم في الخلافة بقوله[3]:

كان الزمانُ مُرزِءاً بخليفةٍ أودى فكاد نهارُنا أن يُظلما

حتى إذا قعد الإمامُ لبيعةٍ كالغيثِ شحَّ بوبلِهِ ثمَّ انهما

(1) المقتبس: 28.

(2) عبد الكريم بن عبد الواحد: من أكابر رجال الدولة المروانية أيام الحكم الربضي، وقد استوزره ثم ولاه الحجابة، توفي سنة 209هـ، ينظر: الحلة السيراء: 135/1.

(3) الحلة السيراء: 136/1.

ولشدة وقع هذه الرزية فإنها أصابت الزمان بأسره، حتى كاد أن يصبح النهار مظلما، إلا أن مجيء الخليفة وجلوسه للبيعة بدد هذه الظلمة وأجاد بالغيث بعد أن شح، فتبدو المبالغة واضحة جلية وأنها قد تكون خالية من الشعور الصادق. أما ابن الحنّاط، فما أن سمع بوفاة المنصور بن أبي عامر حتى قال فيه بديهة[1]:

لمّا نعى الناعي أبا عامرٍ ... أيقنتُ أني لستُ بالصابِرِ

أودى فتى الظّرف وتُرب الندى ... وسيدُ الأول والآخِرِ

أما الحاجب المصحفي فإن نظرته للموت وهو يرثي الخليفة الناصر لدين الله تبدو أكثر عقلانية، وخاصة أنه يرى أن قضاء الله ماض، فكل حي على وجه الأرض مصيره الموت لا محال، وأن هذه النظرة مصبوغة بشيء من الحكمة والتأمل والاعتبار بأحوال الدنيا والمصير الذي يؤول إليه كل إنسان، فيقول راثيا إياه[2]:

ألا إنَّ أياماً هفَت بإمامِها ... لجائرةٍ مشتطّةٍ في احتِكامِها

فلمْ يؤلم الدّنيا عظامُ خُطوبِها ... وأحداثها إلا قلوبُ عظامِها

تأمَّل فهل من طالعٍ غيرِ آفلٍ ... لهنَّ وهل من قاعدٍ لقيامِها

وعاينْ فهل من عائشٍ برضاعِها ... من النّاس إلا ميتٍ بفطامِها

كأنَّ نفوسَ النَّاسِ كانتْ بنفسِهِ ... فلمَّا توارى أيقنَتْ بِحِمامِها

وقد يتعدى هذا اللون إلى رثاء فرد من أفراد أسرة الخليفة كما فعل ابن دراج عندما توفي ولد صغير لعبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر فقال[3]:

عمري لقد أعذَرَ الدَّمْعُ الذي وَكَفَا ... لو اشتفَى من تباريحِ الأسى وَشَفَى

وما غناءُ دموعِ العينِ عن كَبِدٍ ... حَرَّى ونضوٍ يقاسي الليلَ مُلتَهِفا

يا ابنَ الّذينَ لأيديهم وأمرُهُم ... ألقى الزَّمانُ قيادَ الذُّلّ معترفا

(1) بغية الملتمس: 107/1.
(2) مجلة آداب المستنصرية، العدد الثاني عشر، 1985: 198.
(3) ديوان ابن دراج: 451.

ويبدو أن ابن دراج يجد في هذه المراثي مجالا رحبا في ذكر البيت العامري والإشادة بمكارمهم وعظتهم حتى ألقى الزمان قياد الذل معترفا بسيادتهم وقوتهم وتسلطهم.

ومما هو قريب من رثاء الخلفاء والأمراء، رثاء الشهداء من القادة والجنود، وكان من عادة العرب وطباعهم أنهم لا يرثون قتلى الحرب ولا يندبون أرواحهم الزكية، لأن الشهادة هي غايتهم، إنما كانوا يبكون ويرثون ذهاب معاني البطولة والفداء التي فقدوها بفقد صاحبها، كما وأنه ثناء لهؤلاء الأبطال، وتعديد لمناقبهم، ولما أبدوه من بطولات تستحق التخليد، وإبراز مكانتهم الاجتماعية لرفع همم الجنود وحثهم على بذل المزيد من الشجاعة والبطولة في المعارك والتسابق في نيل شرف الاستشهاد[1].

فنرى سعيد بن جودي (ت 284هـ)، يرثي أحد أصحابه من زعماء العرب وقوادهم بأبيات يكثر فيها التفجع والتحسر على تلك المعاني التي اتصف بها المرثي مبينا مكانته الاجتماعية التي كان يتمتع بها بين قومه بقوله[2]:

أمستنصراً بالصّبرِ قدْ دُفنَ الصّبرُ ... مع الحسنِ المأمولِ إذ ضمَّه القبرُ

فيا عجباً للقبرِ منه يضمُّهُ ... وقد كان سهلُ الأرضِ يخشاهُ والوعرُ

وما مات ذاكَ الماجدُ القرمُ وحدَهُ ... بل الجودُ والإقدامُ والبأسُ والصّبرُ

فشمسُ الضُّحى ترجى لفقدانِ نورهِ ... وبدرُ الدُّجى يبكيه والأنجُمُ الزُّهرُ

ب. الرثاء الاجتماعي:

ويتمثل في رثاء الأحبة، مهما كانت علاقتهم بالشاعر، وتبرز فيه العاطفة الصادقة والحزن العميق، إذ يبلغ فيه الشاعر الذروة في تصوير الفاجعة، فهو يرثي الابن والأخ والزوجة والصديق بألفاظ تغلب عليها النغمة الحزينة وعاطفة تكون حرارتها غزيرة، مما جعله يتسم بالسهولة ووضوح المعنى.

ويبدو أن رثاء الأبناء له خصوصية في هذه الحقبة، لاسيما الصغار منهم على الرغم من أنه أشد أنواع الرثاء صعوبة على الشاعر، لضيق الكلام فيه[3]، كما أنه يتشابه فيه النغم

(1) ينظر: الأدب العربي في الأندلس: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1395هـ-1975: 195.

(2) سعيد بن جودي (سيرته ومجموع شعره): د. محمد رضوان الداية: 80.

(3) العمدة: 154/2.

وتتقارب الأفكار بين الشعراء عند رثاء أبنائهم، ولعل مرد ذلك يعود إلى طبيعة النفس الإنسانية المتقاربة إن لم تكن واحدة[1].

وتعد مراثي ابن عبد ربه لولديه أشد المراثي إيلاما ووقعا في النفوس وخاصة أنه فقدهما صغيرين بعد مرض ألم بهما وأرداهما طريحي الفراش حتى توفيا وهو ينظر إليهما بعين الأسى، حيث لا يملك من أمره شيئا وهو يراهما يتقلبان على فراش الموت، وعلى قلة المقطعات التي قيلت في رثائهما إلا أنها تأسر قلب القارئ وتأخذ بلبه.

ففي مقطعته التي تناول فيها رثاء لابنه الأكبر نرى كبده يتقطع حزنا وتذوب حشاياه حتى أنه كاد أن يموت عليه كمدا وحزنا بقوله[2]:

بليتْ عظامكَ والأسى يتجَدَّدُ ... والصَّبرُ ينفدُ والبُكا لا ينفدُ

يا غائباً لا يُرتجى لإيابِهِ ... ولقائِهِ دونَ القيامةِ موعدُ

ما كان أحسنَ ملحداً ضُمنتَهُ ... لو كان ضمَّ أباك ذاك الملحدُ

باليأسِ أسلو عنك لا بتجلُّدي ... هيهاتَ أينَ من الحزينِ تجلُّدُ

أما ولده الآخر فقد دنا منه الموت وهو طفل صغير، ولم يكن جزعه عليه بأقل من جزعه على أخيه الأكبر حتى أصبحت الأرض كلها قبرا من حوله، بقوله[3]:

يقولونَ لي صبِّر فؤادَكَ بعدهُ ... فقلتُ لهم ما لي فؤادٌ ولا صبْرُ

فُرَيْخٌ من الحُمر الحواصلِ ما اكتسى ... من الرِّيشِ حتى ضمَّهُ الموتُ والقبرُ

إذا قلتُ أسلو عنهُ هاجتْ بلابلٌ ... يُجدِّدُها فكرٌ يجدِّدُهُ ذكرُ

وأنظرُ حولي لا أرى غير قبرهِ ... كأنَّ جميع الأرضِ عندي لهُ قبرُ

(1) رثاء الأبناء في الشعر العربي: د. مخيمر صالح موسى، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن: 19.
(2) ديوان ابن عبد ربه: 57-58.
(3) ديوان ابن عبد ربه: 67.

ولعل معاني ابن عبد ربه لم تتخطَّ حدود المعاني المتواترة في الرثاء العربي، منذ أقدم عصوره، فهذه المعاني استقر وزنها في المجتمع وثبتت قيمتها وظل الناس يعلون من شأنها ومنزلتها[1].

وإن رثاء الإخوان لم يكن أقل شأنا من رثاء الأولاد فكانت فيه حرارة العاطفة وفاجعة المأساة واضحة وجلية على ذوي المفقود، فنرى الشاعر مطرف بن الأمير محمد[2] يرثي أخاه محمدا مشددا على ذكر فضائله وخصاله الكريمة، فتميز رثاؤه بصدق العاطفة النابعة من القلب عاطفة الأخ تجاه أخيه بقوله[3]:

أخٌ كأنْ لمْ يمرع الناسُ أصبحتْ ... مواهبهُ للنَّاسِ وهي مرابِعُ

كثيرٌ عليكَ الحزنَ من كلِّ جانبٍ ... كما كثُرَتْ من راحتيكَ الصَّنائعُ

عليك سلامُ اللهِ إن النَّدى لهُ ... زوالٌ وإن السَّعيَ بعدكَ ضائعُ

أما رثاء الأبناء للآباء فالألم يبلغ ذروته والكآبة تطبق عليه، فتكون اللوعة والحسرة والفجيعة واضحة، فنرى الشاعر عمر بن أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن عندما يرثي أباه يصور الدنيا وتقطع أسباب الحياة، فليس أمامه إلا أن يعدد أعمال أبيه الصالحة، ومناقبه الحميدة ممجدا إياها، لاسيما التي تنسجم والأخلاق الإسلامية الحميدة، بقوله[4]:

وكانت لهُ كفٌّ يفيضُ نوالُها ... مدى الدَّهرِ عن تسكابِها ليسَ تُقلِحُ

وكانت لهُ جفنٌ تجافى عن الكرى ... ونفسٌ تناجي اللهَ والناسُ هُجَّعُ

وصومٌ وتسبيحٌ وذكرٌ وخشيةٌ ... وطولُ صلاةٍ أجرها لا يضيَّعُ

ويبقى الأصدقاء في الدائرة الاجتماعية فيحس الشاعر بالحسرة والألم لفقد الصديق ولم يكن الرثاء برجاء الصواب ولكنه الوفاء للذين أحبهم الشاعر وتركوا أثرا طيبا في نفسه

(1) ينظر: رثاء الآباء للأبناء: 35.
(2) برع في الشعر وهو ابن عشرين سنة، توفي في حياة أبيه وهو ابن أربع وعشرين كان شاعرا مفلقا عالما بالغناء، ينظر: الحلة السيراء: 128/1.
(3) ينظر: الحلة السيراء: 128/1.
(4) المصدر نفسه: 214/1.

ولم يعد في الحياة ما يسر، فنرى محمد بن مسعود البيجاني[1] يقول في صديقه راثيا إياه وداعيا له بالسقيا[2]:

قبرُ عليٍّ جادكَ القطْرُ أنتَ لهُ قبرٌ ولي صدْرُ

فيكَ توارتْ أدواتُ العُلا وفي ثراكَ استترَ البدرُ

وليوسف بن هارون مقطعة لا تقل تفجعا عن سابقتها وهو يرثي صديقه البلدي الخباز[3] بقوله[4]:

أنا إن رمتُ سلوّاً عنك يا قُرَّة عيني

كنتُ في الإثم كمن شا ركَ في قتلِ الحُسينِ

لك صولاتٌ على قلـ ـبي دليلاتٌ لحيني

مثل صولاتِ عليٍّ يومَ بدرٍ وحنين

فنرى الشاعر في هذه المقطعة يقتفي أثر القدماء في الوصول إلى مبتغاه ((من ضربهم الأمثال في التأبين والرثاء بالملوك))[5].

ولعل رثاء الغلمان كان له وقعه الخاص على نفس الشاعر الرمادي، فله مقطعة يرثي فيها غلاما فيقول[6]:

كأنّا تمتعنا لقلّةِ عمرهِ بلمحةِ برقٍ أو بلمحةِ طائرِ

فإنْ يتّخذ بين المقابرِ موطناً فأوطاننا من بعدِهِ كالمقابرِ

وقالوا صغيرٌ فاصطبرْ لمصابِهِ فقلتُ: أشدُّ الفقدِ فقدُ الأصاغِرِ

(1) محمد بن سعود البيجاني، توفي قريب الأربعمائة هجرية، ينظر ترجمته في: الذخيرة: ق1م2/ 79، الجذوة: 86.
(2) التشبيهات: 272.
(3) هو محمد بن حمدان المعروف بالخباز البلدي، نسبة إلى بلد (بلط) وهي مدينة بالجزيرة، ينظر: الوافي بالوفيات: 57/2.
(4) شعر الرمادي: 132.
(5) الذخيرة لابن بسام: ق1م2/ 215.
(6) شعر الرمادي: 76.

والملاحظ من خلال تفحص المقطعات التي قيلت في الرثاء ندرة رثاء النساء، سواء كانت زوجة أم أختا أم بنتا، ولعل السبب في ذلك يعود لشعور الشاعر بالحرج، لأنه لم يتسنَّ للمرأة أن تتمتع بدور ريادي في المجتمع ولا أن تحظى بالأهمية التي حظيت بها في العصور اللاحقة عندما جهر الرحالة ابن جبير برثاء زوجته شعرا بما يؤلف ديوانا كاملا[1].

ج. رثاء المدن:

هو نوع آخر من أنواع الرثاء والتفجع والحسرة، شاع عند شعراء الأندلس شيوعا لم يعرف له مثيل وذلك لتشربهم بحب الوطن الذي خالط قلوبهم ومازج المهج[2]. فلم يجد الشعراء في بلد إسلامي ما وجدوه في بلاد الأندلس من العيش الرغيد والنعيم الطافح، فكان تحسسهم بالمأساة أكثر من غيرهم وهم يرون مدنهم تخرّب، ورأوا الفرنجة والبرابرة والمتمردين يفترسون هذه المدن، مما أثار شجونهم، فراحوا يذرفون دموعهم رخيصة على هذه البلاد[3].

فشاهد الشعراء الخراب بأعينهم، وقلوبهم تتقطع من الأسى والحزن، إذ شاهدوا هذه المدن الزاهية الجميلة تهوي أمامهم وتصبح محض حطام.

فهذا الشاعر عباس بن فرناس ينقل لنا ما حلّ بمدينة طليطلة من دمار وخراب، بعد أن شقّ أهلها عصا الطاعة على الأمير محمد، فنالها الدمار، فرثاها قائلا[4]:

أضحتْ طليطلةٌ معطّلةً عن أهلها قبضةُ الصَّقرِ

تركتْ بلا أهلٍ تؤهّلُها مهجورةَ الأكنافِ كالقبرِ

إلا أن الذي أثار شجو الشعراء في هذه الحقبة، هو ما حلّ بقرطبة من دمار إذ يرون معالمها تخرب وأموالها تنهب وشمس بني أمية تنطفئ، وحكم بني عامر يزول، فندبوها بمراثٍ تفيض حزنا، لاسيما بعد أن استعان (سليمان المستعين) بالبربر لتخريب المدينة، بعد أن حاصروها مدة تزيد على ثلاث سنوات أشاعوا خلالها الخوف والقلق بين الناس، وقتلوا

(1) الذيل والتكملة: 608/5.
(2) ينظر: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عهد الموحدين: رعد ناصر، ماجستير، الموصل: 2-20.
(3) ينظر: في الأدب الأندلسي: محمد كامل الفقي: 27.
(4) نفح الطيب: 162/1.

الكثير من أعلامها[1]، وأضرموا النار في قصورها ومبانيها كأنها تدفع ثمن عنادها في عدم فتح بابها أمام المعتدين[2].

إزاء هذه الأحداث المروعة، ما كان أمام الشعراء إلا أن يبكوها شعرا بقلوب تنزف دما باكين معالمها وحضارتها التي كانت مزدهرة لقرون طويلة، واصفين ما آل إليه مصيرها بعد أن كانت محط أنظار العلماء والعالم على حد سواء ومن هذا الشعر أبيات أوردها المراكشي لا يعلم قائلها[3]:

إبكِ على قرطبةَ الزَّينِ ... فقد دهتها نظرة العين

أنظرها الدَّهرُ بأسلافِهِ ... ثم تقاضى جملة الدين

كانت على الغاية من حسنها ... وعيشها المستغرب اللين

فانعكس الأمر فما إن ترى ... بها سرورا بين اثنين

فاغد وودعها وسر سالما ... إن كنت أزمعت على البين

ويعد ابن شهيد أكثر الشعراء تأثرا في هذه الواقعة، ولم لا وقد ولد فيها وعاش في أكنافها، فكانت مرتع صباه، فتشرب حبها في قلبه، فلا يستطيع مغادرتها إلا كما يهجر الطير وكره قسرا وعنوة، فكانت صورتها في ذهنه بعد هذا الخراب، توحي إليه صورة العجوز الفانية بعد أن كانت تتمتع بالوجه الحسن أيام شبابها، بقوله[4]:

عجوزٌ لعمرِ الصِّبا فانيه ... لها في الحشا صورةُ الغانيه

زنتْ بالرّجال على سنّها ... فيا حبذا هي من زانيه

(1) يذكر المراكشي: أن عدد الذين ذهبت بهم الفتنة بلغ عشرين ألفا، ينظر: المعجب: 82.
(2) ينظر: أعمال الأعلام: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفي برونسفال، بيروت، لبنان، ط2، 1956: 107.
(3) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذاري المراكشي، تحقيق ج. س. كولان برونسفال، ليدن، هولندا، 1951: 95.
(4) ديوان ابن شهيد: 177.

ولم يقتصر رثاء ابن شهيد لقرطبة على هذه المقطعة فقد رثاها بقصيدة جاءت في ثلاثين بيتا، وصل بها إلى ذروة الحزن وغاية الفجيعة والغضب العنيف، والتي مطلعها[1]:

ما في الطُّلولِ من الأحبَّةِ فمنْ الذي عن حالِها نستخبِرُ

ولا يقل بكاء ابن حزم الأندلسي على مسقط رأسه ومرتع صباه تفجعا وحزنا عن بكاء ابن شهيد، فقد رثاها بقصيدة تنم عن صورة الخراب والدمار الذي لحق بها بتأثير عميق ممزوج بلوعة وألم وحسرة على تلك الأيام السعيدة التي تنعم فيها الشاعر وهو يعيش في القصور المطرزة، فقال بمطلعها[2]:

سلامٌ على دارِ رحلنا خلاءً من الأهلينِ موحشةً قفرا

وهناك أكثر من شاعر وقف على هذه المدينة العريقة راثيا إياها، باكيا على أطلالها، فلابن عصفور الحضرمي في رثائها قصائد طويلة وكثيرة[3]، كما وقف ابن زيدون راثيا وباكيا[4]، أما ابن إسحاق الألبيري[5] فيقف عند تلك الفتنة معللا أسبابها رابطا بين سقوط ألبيرة وسقوط قرطبة بشعر جميل.

(1) المصدر نفسه: 64.
(2) شعر ابن حزم الأندلسي، مجلة المورد، العدد الرابع، 1998: 72.
(3) الصلة: 35/1، وينظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: 180.
(4) ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق عبد العظيم، دار النهضة، مصر، الفجالة، القاهرة، ط2، 1977: 158-160.
(5) ينظر: ديوان أبي إسحاق الألبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1976: 73.

وعلى الرغم من الشعر الذي قيل في رثاء قرطبة إلا أنه لا يعد إلا قلة إلى كثرة إذا ما قيس بشعر العهود المتأخرة في الأندلس، لاسيما في عصر المرابطين والموحدين وما تلاها بعد ذلك من أوقات الجمود والانحلال حتى سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين[1].

(1) إذ كان سقوط حواضر الأندلس ومناطقها في أيدي الفرنجة بدئا بالقرن الخامس الهجري على هذا النسق من الزمان، ووفق التاريخ الهجري: بورشتر 456هـ، صقلية 464هـ، طليطلة 478هـ، بلنسية 487هـ، شلب 593هـ، جزيرة ميورقة 627هـ، البونت 633هـ، قرطبة 633هـ، بياسة 634هـ، بلنسية 636هـ، لورقة وقرطاجنة 640هـ، إشبيلية 646هـ، مورسيا 668هـ، رندة 890هـ، مالقة 892هـ، وادي آش والمرية 894هـ، غرناطة 897هـ، ينظر: ملامح الشعر الأندلسي: 309.